لقاء أخير

رِوَايَة

شريفة السعيد

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

obeikandl.com

الإهداء

إلـــى عشـــــاق الفـــن الجميـل فـــي كـــل مكان

صعـــودًا

وهبوطـــًا

فـــي ســـماواتٍ

تقتحمنا

بقـــــــوة

فتفـتُـتـنا

علـــى

سُـــلمِ

لحظـةٍ

أحـــدّ مـــن السّـــكين . . . . !!!

شـــريفة الســـعيد

obeikandl.com

(١)

مكالمة لم تتم

" إنَّ أجمل ما يفتنني في هذه الحياة جسد امرأة يتراقص طربًا . . فأنا مشغولٌ جداً بجسد الأُنثى المتناسق الذي يشعُّ ضوءاً شفافًا مُكلّلاً بالندى عند منطقة الصدر بالتحديد . . . "

. . . . . .

كانت تحدِّثُ نفسها في لحظة صراحة، أحسَّت خلالها بمولود جديد يتخلَّقُ في أحشائها . . عليها الاتصال به ما بين السابعةً والتاسعة مساءً . لمْ تصلْ إلى المنزل في الوقت المناسب، فهي لا تزال في طريقها إلى القاهرة . أبناؤها الثلاثة يجلسون في الخلف؛ فيما يقود زوجها السيارة الفارهة :

- أنتِ متعَبَةٌ جداً . . . !!

obeikandl.com

أنا أعرفكِ جيداً . .

ـ لا . . أبداً . . .

– شيء عاديٌ . . أنا أدمنتُ أقراص الـ "أوروفار" والـ "تانتم الأخضر" ، فاحتقان الحَلْق أصبح صديقي .

– إذنْ أنتِ مريضة . .

– أتريد أنْ توهمني بذلك . . ؟!

. . . . . .

كان صمتُها المطبق خلال ساعة كاملة ـ بل أكثر ـ هو السبب الوحيد في حوارٍ مُملٍّ كهذا . . أخرجها منٍ عالمها الخاص جداً ، لكنها بسرعة مذهلة رغم ارتفاع أصوات أبواق السيارات وضجيج الشارع عادتْ تُحدِّثُهُ :

– أوحشتني كثيراً . . .

– وأنتِ أيضاً . . . . متى سأراكِ . . ؟!

– عندما أعود نحدِّدُ موعداً . . ونلتقي

obeikandl.com

يومان لمْ أسمعْ صوتَكَ . . . !!

- اعذريني . . . أنتِ محقَّة . . . . اعذريني .

صحيح ، كيف تسافرين دون أنْ . . . . .

- الله . . حلوٌ جدًا هذا الكلام . . سأخبرك فيما بعد . .

كانت تتذكّر مكالمةً هاتفية أخيرةَ حدثتْ بينهما . عندما أرادتْ أنْ تُطمئنهُ وتخبرهُ أنها في الإسكندرية وستعود غدًا الجمعة بعد السادسة مساءً . . فجأة رشقتْ عيونها في سيارة مجاورة يقودها رجلٌ وسيم يشبهُ تمامًا (نصير شَمَّة) الفنان العراقي وعازف العود المحترف . . ، أحسَّتْ برغبة قوية في تحيَّته . أشارتْ على زوجها أن يتمهَّل قليلاً لتراه وتشير إليه ، فهو الفنان الشهير الذي أهدتْهُ أعمالها الأدبية في معرض الكتاب العام الماضي . وبعد محاولات مُضنية للحاق بسيارته التي كانتْ تمر كثعبانٍ مراوغٍ اكتشفتْ أنهُ رجلٌ آخر . . لمْ تندمْ على المحاولة ، واكتفت برؤية رجلٍ يشبههُ بوجهه النّحيف وعينيه الواسعتين ورأسه الحليق وقوامه الرشيق . داعبها لقاؤها به في حفل الأوبرا وحفل معرض الكتاب واحتفاؤه بوجودها في الصف الأول وكأنه يعزف لها وحدها . ابتسمت

ابتسامةً غير مكتملة؛ فيما ابتلع الطريقُ شبيهَ (نصير شَمَّه) بين فكَّي الزحام وأضواء السيارات. .

لمْ يكن ما فعلتْهُ الآن سوى حيلة لتوهم زوجها وأبناءها بأنها امرأة عاديَّة، تتحدَّث وتبتسم وترى ما حولها بوضوح، وتفترض وجود الأصدقاء على الطريق الصحراوي، فيما كان يُحدِّثها مرَّةً أُخرى:

– إنَّ أجمل ما يفتنني في هذه الحياة جسدُ امرأة يتراقص طربًا. . فأنا مشغولٌ جدًا بجسد الأُنثى المتناسق، الذي يُشعُّ ضوءًا شفافًا مُكلَّلاً بالندى عند منطقة الصدر بالتحديد. . . .

كانت تعلم جيدًا أنها تداعب التمساح، وأنها لنْ ترضَى بلقائه منفردةً، حتى ولو أعطاها كنوز الأرض. ثمَّ لأنها تؤمن بمبادئ وأخلاقيات ابنة الريف، رغم أنها تعيش في القاهرة؛ تحفظ القرآن وترتدده وتعلم أن الحلال بيِّنٌ والحرام بيِّنٌ، ومع ذلك وعدتْ نفسها:

– عندما أعود سأُحدِّثُهُ على الفور. . سأقول له (وحشتني) كي يعيد علىَّ الكلمة مزيدة بياء المخاطبة. . تلك التي تعيد صياغتي مرَّات ومرَّات كُلَّما تسرَّبتْ إلى قلبي عبر المسام الكثيرة في

جسدي، فأشعر بنشوة غريبة وبإحساس لذيذ يشبه طعم العسل الأبيض المختلط بالقشدة الطازجة.. سيحدثني عن اللقاء الأول القادم الذي انتظرناه طويلاً، وعن القُبلة الأولى التي لمْ ينلْها منِّى حتى الآن، عن طعمها، وملمسها ولونها، سيحدثني كالعادة عن بُقعة الضوء التي كانت مثل ضوء كشاف كهربائي قوي عندما اتكأتُ على الطاولة في كافيتريا (على بابا) بميدان التحرير، فمالتْ (البلوزة) قليلاً، وانكشف الضوء من أعلى الصدر. سيحدثني عن تعمُّده اختلاس النظرة ليتعرف على لون حمَّالة الصدر.... اللون الأسود فوق بياض هذه المنطقة يزيدها تألقًا وجمالاً..

سيحدثني أيضًا عن لون البلوزة الأبيض الذي غطَّى عليه الضوء المفاجئ من فتحتها مُمْتدًّا إلى الرقبة وتحت الذقن، منتشراً فوق الوجه، وفي المكان كله.. وعن "الجيب" الحمراء التي يحب لونها تمامًا كما يحب اللون الأسود..

وكيف كان الجسد الفارع داخلها ذا تأثير رغبوي يفوق قدرته على الاحتمال، والذي جعله يترنح بحق كمن شرب أكثر من زجاجة خمر فثمل تمامًا.. حتى أنني أشفقتُ عليه وتركته يستند على كتفي كي لا يقع منّى في الشارع.. وازداد إشفاقي عليه

فدخلتُ به مطعمًا ليأكل، لاعتقادي أنه يترنّح لأنه لمْ يتقوَّتْ طيلة اليوم، فاكتشفتُ أنه يمثّل دور المترنِّح ليستند عليَّ . . .

سوف أسأله عن معنى الحب ولن يجيب . . فأسأله عن معنى الجسد فيجيب بطلاقة شديدة في عبارات فضفاضة، تتعدَّد فيها الاحتمالات والتأويلاتً لكثرة التصاوير والتشبيهات . .

سيحدثني عن الخنجر الذي سيشق النَّبع بقوة مرات متتالية، منتظمة، وعن الشطوط التي سيجوبها، والخلجانَ التي سيمر بها، وعن الندى الذي سيغمر البرتقال، وعن تأثير الضوء في الفضاء المتسع، عن نهرين يهدران عسلاً وديعًا لحظة اغترافه منهما، وعن السماء والمطر الذي يتصَّبب من جبهةٍ بذلتْ مجهودًا جميلاً فوق الأرض العطشَى . . .

سيحدثني عن نخلةِ التمر التي سيحاول صعودها ليقطف ثمارها الناضجة، وعنَ خاصرة ستذوب بين أصابعه، وعن العصافير التي ستتطاير مرحًا من فمي عندما أحاول قراءة جسده أنا أيضًا . . هناك فوق بساط الريح الذي سيفرده لي فأصعد إلى جواره مُستسلمةً تمامًا :

– حمدًا لله على سلامتك . .

- أمعقولٌ هذا . . . وصلنا بهذه السرعة . . !!

- سرعة ماذا . . ؟ لقد استغرقنا ثلاث ساعات في الطريق . . . !!

. . . . . .

. . . . . .

. . . . . .

على السلم سمعتْ صراخ جارتها الأستاذة الجامعية، مع أن هذا الوقت لمْ يكن موعد الضرب اليومي من زوجها . الضرب يؤلمها هي وكأنه يقع عليها هي . . تحاول أن تنساه .

كالفراشة تصعد إلى شقتها، لمْ تفكّر حتى في حمل إحدى حقائب السفر من السيارة . يقوم زوجها والأبناء بالمهمة . . فهُمْ على خلاف دائم مع بواب العمارة ولا يطلبون منه أيَ نوع من المساعدة إلاّ نادراً . . البواب وزوجته يعتبران أنفسهما من سكان العمارة وليسا بوّابين . .

. . . . . .

ـ ليس موجوداً في شقة الهرم، ولا في شقة الجيزة. . ! سأكلمه عند منتصف الليل وربما بعد ذلك، أو بعد العشاء إذا حانت الفرصة.

يدق جرس الهاتف. . . أخوها (محمد) يطمئن على وصولهم إلى القاهرة؛ فيما يثور زوجها والأبناء:

- أعدي لنا العشاء فوراً. .
- أكاد أموت من شدّةِ الجوع. .
- وأنا مثلك أيضًا. . .
- انتظروا. . لحظة واحدة. . أُبدِّلُ ملابسي.
- قُلتُ لك ألف مرة لا تمسحي أحمر الشفاه والكحل في الثياب البيضاء هكَذا. . . ! !
- لم أمسحه في ثيابك، إنها ثيابي وأنا حُرّةٌ فيها. .
- رَدٌّ سخيف، وليس مبرِّراً. . أنا أكره هذا المنظر سواء في ثيابك أو في المناشف أو في أي شيء. . . ! !

obeikandl.com

- أرجـوك أن تهـدأ. وألاَّ تنـزعج هكـذا.. سـأخفي هـذه المناظر التي لا تعجبك من أمامك فوراً.

- ناوليني الصابونة كي أغسل جسدي من تراب الطريق.

- تفضَّلْ وفوقها قُبلة..

- لا أريد الصابونة سأستحم هكذا بدون صابون.

- الأفضل أن أُعدَّ الطعام ليسكت..

نعم.. الأفضل أن أعدَّ له الطعام ليسكُت...

بين طرقعة الملاعق والسكاكين والأواني حدَّثت نفسها؛ فعـلاً سـأمزّق كـل الأشـعار الـتي قمـت بتأليفهـا مطبوعـة ومخطوطـة وسأحرقها توًا، وأضع رمادها في زجاجة كما يفعل الهنود في جُثث مَوْتَاهُم، وسأذهب بها إلى أهم جريدة في مصر، إلى رئيس التحرير شخصيًا، وأعطيه الزجاجة قائلـة لـه: هـذا هـو خلاصـة إبـداعي طوال العشرين سنة الماضية.. وأمامه سأفتح الزجاجة وأبصق فيها بصْقَةً كـبيرةً تصـلح بـل تكفـي لأن تصـنع محلـولاً، أعـود بـه إلى حجرتي، وبعد أسبوع كامل عندما يكون المحلول قد تعتق أذهـب

به مرةً أخرى إلى مبنى الجريدة، إلى رئيس التحرير شخصيًا وأقول له: " هل يصلح الآن للنشر . . . ؟! " .

سأحدِّثُهُ عن ذلك أيضًا . . إذْ كيف يعمل هو في هذه المؤسسة الصحفية العريقة ولا يستطيع أن ينشر لي قصائدي في الصفحة الأولى، كما كان يحدث مع شعر أحمد شوقي وحافظ إبراهيم في الأيام الخوالي . .

. . . . . .

بطريقة آلية تضع الطعام على المنضدة. وبآلية أيضًا تنادي عليهم، وتجلسُ سارحةً، ليست لديها رغبة في تناولِ الطعام، تريد أن تستكمل الرواية التي بدأت قراءتها في الإسكندرية، والتي لولا ظلام الليل المخيم على السيارة داخلها وخارجها لكانت أكملتها في الطريق الطويل الذي يصلح عادةً للقراءة.

تتناول بعض قطع الخيار، وملعقتين من الجُبْن القريش، وتتعجل غليان الماء لإعداد الشاي: ثلاث ملاعق من السكر لكوب زوجها، وملعقة واحدة لكوبها، وشاي باللبن للأطفال الصغار:

- ماما أنام جنبك.

- أنا التي سأنام بجوارك يا حبيبي . . هيا بنا . .

في حجرة الأبناء قطتها السِّيامي البيضاء تسبقها إلى السرير، عيناها تشبهان عيني القطة تمامًا. وكذلك رقتها ولونها، ونعومة ملمسها . .

ترتدي قميص نوم أبيض سادة، تعلو صدره ـ المفتوح على شكل مربع ـ نقوشٌ فرعونية وزهرة واحدة حمراء في المنتصف . . تستند إلى طرف السرير، فيمتزج القميص الأبيض بلون القطة الأبيض، حتى لا يكاد يتم التفرقة بينهما إلا من خلال عيني القطة الزرقاوين، اللتين تتأملهما جيدًا وتطيل النظر فيهما، لترى في إحداهما طفولتها وفي الأخرى براءتها، تنامان بجوارها في سلامٍ داخلي غير مسبوق.

في الصباح تقع عيناها على ملحق الجمعة الأدبي التابع لجريدة الأهرام، والتي اشتراها لها زوجها بالأمس (كعادته منذ بدء إجازتها من العمل . . وحيث استمرت هذه العادة حتى بعد عودتها للعمل . . .)

تقرأ العناوين البارزة بصوت مرتفع: قصة قصيرة لرئيس مجلس الشعب، ومقال لوزير التعليم، وجزء من رواية لثروت

أباظة. تتساءل ككل جمعة: أين الشعر الذي كان يتصدر الجرائد أيام شوقي وحافظ...؟ يلفت نظرها بالداخل قصيدة من سبعة سطور فقط لشاعر كلاسيكي، وقد انحشرتْ حشراً بين المقالات الطويلة العريضة: تُتمتم: "الشعر.. المظلوم دائماً..." .

* * * *

obeikandl.com

(٢)

المَحْرَمَة

تترك الجريدة جانبًا بعد أن تتصفحها جيدًا. تتأهب نفسيًا لحضور الأمسية المذكورة بالجريدة، الليلة، باتحاد الكتاب... تتنبَّهُ إلى أنها لا تزال في حجرة الأبناء. ليست هذه هي المرة الأولى التي هجرت فيها فراش الزوجية. لقد تعوّدتْ ذلك بعد زواجها بأسبوع واحد... نعم... لا تزال تتذكر جيدًا تلك الليلة المشؤمة التي فُضَّتْ فيها بكارتها وسط الزغاريد والطبول (نظرًا لتمسك أمها وأبيها بعادات الريف) وعلى مرأى ومسمع من الخالات والعمَّات والجارات وبعض الأطفال:

- فيكْ إيه... مالَكْ عرِقْتْ كده ليه...؟!
- وإيه الرَّعشة دي؟ هوَّه انتَ منهم..؟!
- اوعى كده يا خويا خلينا نِخْلَصْ.. أبوها وعمامْهَا هيكَسَّروا الباب من الخَبْط..
- شهِّلي يا اختي انتي وهيَّ...

– هات يا سِي الأُستاذ . . دي المحْرَمَةْ الأولانيَّهْ لسَّه ما طلعتْش . . أنا هاخد أوِّل وشّ، وانت ورايا على طول . . شَايفَهْ . . . زغرتي يا بنت انتي وهيَّ: " يا بلحة يا مقمَّعهْ . . شرّفتي عمَامك لاربَعهْ . . " . . . . . .

كان وجه البراءة قد أُحيل إلى وجه مُفلطح ممطوط، طوله متر تقريبًا. وعرضه متران، صار ماكياجُهاً مثل لوحة سُكبت فوقها علبة ألوان زيت، فساحتْ كل الألوان فوق اللوحة مختلطة بالدموع وعرق المقاومة، فمُها المفتوح والمُكمَّم بيد سيدة لا تعرفها يُصدر أصواتًا متقطعةً تشبهُ أصوات البومة، ورجْعُ أنينٍ يخرج من شريط كاسيت مَسْفُوفْ . . . حين كان وجه العريس يحمل ملامح قاتلٍ مأجور دفعوا له مقدّمًا.

ثلاث مرات لم تفقدني عُذريتي فقط . . بل أفقدتني الوعَي تمامًا . . أُغمَى عليَّ. ولم أفق إلا في اليوم التالي عندما عادوا وعُدْنَ لشقِّ الصبحيَّة . . . ماذا . . ؟ وهل أمسيتُ لكي يكون لي صبحيَّة . . ؟! لم يعرفوا أنهم شاركوا جميعًا في الجريمة التي أعاني منها حتى الآن . . . خوف . . خجل . . اضطراب . . توتر أعصاب . . كآبة . . إحساس فظيع بالألم ينتابني بمجرد التفكير في

النوم يزداد أكثر كلما جاء المساء ونـادَى علـيَّ . . لتصـبح حجـرة الأولاد هي المكان الأكثر راحة . .

كان اليوم رتيبًا جدًا على غير العادة . . لم تُكلّـمْ أحـدًا . . ولم تتحمس لشيء . . في المساء وبحـذر شـديد جمَّعـتْ الأولاد بعـد أن اطمأنَّتْ أنه قد نـام . . . فمحمـود ينـام بسـرعة جـدًا بعـد تنـاول الطعام . . ينسَى الشاي كعادتـه . . غطـتهم وأطفـأت المصـابيح ، واستلقت على ظهرها تتأمل سقف الحجرة . تلتقط أنفاسها ، ترمي وراء الدقيقة الأولى من الليل ـ الليل صديقها الوحيد ـ كلَّ الأعبـاء المنزلية وغير المنزلية التي ترهقهـا نهـارًا دون توقـف . فهـي سـيدة أعمـال ناجحـة تمتلـك شـركة إعـلام وإعـلان لهـا ثقَـلٌ في سـوق الشركات الناجحة ، يحسدها أصحاب الشركات المنافسـة ، وطالمـا دخلت في صراعات كثيرة معهم ، لكنها في كل مـرة كانـت تكيـب الجولة .

لم تقضِ وقتًا طويلاً ، ولم تبذل جهدًا كبيرًا كي تدخل نفـس الحالة التي عادتْ بها بالأمس من الإسكندرية سَمِعَتْهُ :

– إنَّ أجمل مـا يفتِّـتني في هـذه الحيـاة جسـد امـرأة يتراقـص طربًا . . وفي الوقت نفسـه لا أحـب الراقصـات المرخَّصـات ، ولا

أستمتع بهن وقت القيام بالحركات الإيقاعية أمام الجمهور . . لأن هذه اللحظات لا تخصُّني وحدي . . ثم إنها لحظات فيها ابتذال وافتعال وبَيْعٌ رخيص ، وقدرة على التلوُّن والتلوّي كالأفعى . . فقط يأسرني جسدٌ يخصُّني ، يمتلكني . جسدٌ له تأثيره القوي الفعال عليَّ ؛ فأنا أنفٌ جداً ، وأعتز بجسدي جداً ، فلا أمنحه إلا للتي تستحقه ، ولَا أسمح له بالغناء إلا مع امرأة لها قوة البطش ، وسطوة الاستبداد ، وانسيابية الحركات ، وليونة الماء ، وصلابة الحِصن في آن . .

نظرتْ بجوارها ، قطتها السِّيامي البيضاء راحت في نومٍ هادئ وجميل . ملأتْ الابتسامة العريضة وجْهَهَا البريء كبراءة الفجر . . . لمستْ كتفيْها بيديها الناعمتين ، وراحتْ تُقبِّل طفلها النائم في حضنها كملاك . . ابتسمت ابتسامة وردة صغيرة تتفتح لتوِّها مع بداية الربيع الذي طال غيابه . . كان ذلكً مبرراً كافيًا لأنْ تنام نومًا عميقًا وهادئًا . بعد أن أغمضتْ عينيْها الواسعتين جداً ، رأتْهُ مقبلاً عليها يحتضنها دون مقدمات . . كان ذلك أيضًا مبرراً كافيًا لاستمرار الحياة . .

كانت (مَيّ) تحلم بـه كـل ليلـة . . . لتصـحو مـن أحلامهـا، وكأنها امرأة أخرى غيرها . . بعد أن تُفرِّغ هذا الجسـد مـن نفسـها وتعبّئُهُ بأُنثى أخرى مختلفة تمامًـا . . كـان عزاؤهـا الوحيـد أنهـا لم تفعل ذلك مع سبق الإصرار والترصد.

حتى في أحلامها كانـت (مَـيّ) السِّـكين الـتي تـبتر الأشـياء، واللص الذي يسرق الابتسامة من فجر الأيام، ثم تحرقها وتبعثرهـا مع الريح كما تتبعثر قصاصات الأوراق الملقاة مـن أعلـى طـابق في برج القاهرة.

كانت (مَيّ) ـ حتـى في أوج سـعادتها ـ تـبتر هـذا الإحسـاس بحرف واحد قاطع (لا) وكأنها ترفض ميلادها من جديد، تـرفض تكرارً التجربة، ترفض الحب لارتباطه في لحظة التوحُّد بجـزء منهـا ذاق مرارة الألم، ولوعة الانتهـاك . . لَم تسـتطع (مَـيّ) أن تَحـتفظ بالحب الوحيد الحقيقي في حياتها. فقد جاءت عنـد نقطـة التوحُّـد بعد ارتفاع الخط البياني لحبٍ عميق تغلغل في كيانها وامتلكها كليةً وقالت: (لأ . . . . .).

ثمة شيء غريب وقوي ناشف يقف في حَلْقها النـاعم الطـري، تشعر به دائمًا كشوكةٍ حادة مدبَّبـة قـد غُـزَّتْ في روحهـا، وتخـرج

تاركةً أثر السكين المضروبة في بطِّيخة حمراء قانية، حيث لا تستطيع أن تنسى ذلك المشهد أبداً . .

* * * *

obeikandl.com

(٣)

الدّور على مَيّ

وفي صباح عادي جدًا:

هيَّا استيقظوا.. هيا أعدُّوا لنا الفطور.. استيقظوا.. هيا...

- صباح الخير أولاً...!!

- أعدي لنا الشاي.. أريد أن أنزل..

- نعم... نعم... بالفصحى طبعا

- ألف مرة قلْتُ ناموا مبكرًا، كي تستيقظوا مبكرًا.. ولا فائدة وكأنني أؤذِّن في مالطة..

تتمالك نفسَها. تحاول أن تكمل الحوار بشيء من الهدوء، تمتص غضبه باسترضائه..

- حالاً.. كلُّ شيء سيكون جاهزًا، وبدون صراخ أو ضجيج، فالأولاد نائمون..

obeikandl.com

– ولماذا هم نائمون حتى الآن . . ؟! . . الساعة الآن التاسعة يا هانمْ . . . !!

– هم أطفال . . . ليسوا موظفين ، و (رشا) ذهبتْ إلى مدرستها مبكرًا ، وها هو الشاي والفطور جاهزَيْن . . .

– تناولوه أنتم . . . سأذهب أنا . . . انتبهي جيدًا أنتِ التي أفسَدَتْ الأولاد . . (يكاد أصبعه السبابة يدخل في عينها وهو يشير إليها متهمًا)

– ولماذا إذنْ توقظني مبكرًا ما دمت لا تريد الفطور . ؟!

– كي تأكلي أنتِ ويأكل الأولاد . . أنتِ لنْ يخطر ببالك أبدًا هذا الموضوع . . أنا أعرف كيف تعيشينْ . . . . . ؟!

يُغلق الباب خلفهُ بطريقة مزعجة ، تلتقط أنفاسَها وكأنَّ جبلاً ضخمًا شاهقًا قد أزيح توًّا من فوق صدرها . . يدق جرس الهاتف . . . يداعبها صوت أمواج البحار ، وحفيف الأشجار ، وغناء العصافير ، ولون الصباح الجميل المعبّق برائحة النعناع المختلطة بالشاي الذي يرتشفه الآن :

- هل تسمحين لي أنْ أشربَ الشاي وأنا أتحدث معك . . ؟

- طبعًا . . طبعًا . . أنت مسموحٌ لك فِعْل أي شيء ، وكل شيء في الدنيا . . .

- أي شيء . . . ؟ وكل شيء . . ؟!

- طبعًا . .

- متأكدة . . ؟

- ماذا تقصد . . . ؟ ! !

- لا شيء . . ولكنْ . . . سنرى . . . ! !

لماذا أُحدّثهُ بهذه الطريقة . . أهو الخيط ، الرفيع الذي يحرك المشاعر حركة لا إرادية . . فيجعلنا نُغرِّد كالعصافير ، ونطير كالفراشات ، ونتلوَّن بلون الربيع ، فنرى الدنيا بعيون أجمل . . لكنه لا يعترف بالحب والأشواق وآلام الفراق والأشياء الكثيرة التي يعتبرها كلامًا فارغًا . . في حين أعتبرها أنا جزءًا أساسيًا في العلاقة ، ما الذي يشدني إليه . . . ؟ ! ! شخصيته مبهرة لدرجة كبيرة ، إنه يتحسس الأشياء جيدًا ، يتذوقها ويشمها عنْ بُعْد . غموض ما يُغلِّف حياته وفي الوقت نفسه يتمتع بقدرة فائقة على

obeikandl.com

التحدُّث بصراحة غير متكلَّفة، يُمنْطق الأشياء ويجد مبررات مقنعة لها، وأنا كذلك. . إنه يشبهني في أشَياء كثيرة، يتحدث عنيً كمن صال وجال بين دروبي أزمانًا طويلة، رغم أنه لمْ يرني سوى مرتين. . . الأولى في حفل شاي بين جمعٍ كبيرٍ من الصحفيين والإعلاميين والكُتَّاب، والثانية في مقر عمله بين زملائه ولمْ يستطع أن يتطلع إليَّ ولا دقيقة واحدة، اللقاء نفسه لم يستغرق دقيقة واحدة. . لمْ أعدْهُ بشيء، لكنه يؤكد أن بلاغة هذا الجسد كانت أقوى وأبلغ من طلاقة لساني، لدرجة أنه استطاع أن يعقد بسهولة صداقة قوية مع كل جزء فيَّ: شعري، كفَّيَّ، عيوني، وخاصرتي وأجزاء أخرى. . فأبلغوا عنّي وفتنوا عليَّ، خانوني جميعًا منذ اللقاء الأول، فكان يحلو له أن يسميهم "أصدقائي الخَوَنَة". . ماذا يحدث لي. . ؟. . إن ما بيننا لا يتعدَّى الصوت الدافئ المُرسل إليه عبر الأسلاك كرائحة الجوافة الطازجة. . إن ما بيننا لا يتعدَّى الأسئلة البليدة المتكررة يوميًا مع كل الأصدقاء:

أين كنتَ طوال اليوم. . ؟ متى ذهبتَ، . . . ؟ متى رجعتَ. . . ؟

ماذا فعلتَ. . . ؟ مع منْ جلستَ؟

- لماذا كل هذه الأسئلة البلهاء . . . ؟

- أريد أن أعرف كل شيء عنكَ .

- أسئلة ساذجة لن تدلَّك عليَّ . إذا أردت أن تعرفيني اقتربي منِّي أكثر . . فأنا عبر ازدحام الشوارع وضجيج العمل وطلبات الأصدقاء أكون إنسانًا آخر غيري ، ومعك بالتحديد سأكون أنا الطائر الذي تريدين أن تعرفي . . . وأنا متأكد أنني سوف ألقنك الدرس الأول في الحياة . الدرس الذي أثق مئة في المئة أنه لن يتكرر طيلة عمرك . . أرجوك وزِّعي هؤلاء على جسدك الشَّمعي بالعدل ؛ قبلة ، اثنتانَ ، ثلاثة ، . . . . . هيه . . موافقة . . ؟

- بالطبع لا . . . (لأ) نحن بهذا الشكل مختلفان . . ويا حبذا لو أوقفنا نزيف المكالمات التي من هذا النوع . .

(مَيّ) تُفضَّل ولو القَدْر القليل من الحب . . هي بطبيعتها رومانسية تحب الليل والنجوم السابحة في السماء الساحرة باحثةً عن شيء ما . . وفي أكثر الليالي تعتقد أن هذه النجوم تبحث عنها هي ، فتختبئ منها كطفلة تلعبُ (الاستغماية) ، مرةً وراء شيش شباك في الطابق الخامس والعشرين بالبرج الأنيق المطل على النيل ،

ومرةً تختبئ منها تحت الأشجار الكثيفة المنتشرة على الشاطئ، ومرة تختبئ منها تحت كوبري قصر النيل. وعندما تكتشف النجوم مكانها في كل مرة تُطلق (مَيّ) ضحكتها البريئة الصافية قائلةً بصوت عالٍ يرنُّ في الآفاق:

– باي باي يا نجووووووم.. هتيجوا بكرة عشان نكمِّل اللعبهْ...؟

لتكتشف أن صوتها صوت امرأة ناضجة، دافئ جداً ومستدير مثل كرة، وناعم كالحرير... فمن ذا الذي يعيدها مرة أخرى إلى طفولتها الهادئة، إلى بيت جدتها في القرية الريفية القديمة، إلى دير الناحية، والمسجد العتيق، والبيوت الطينية القصيرة في الشارع الطويل غير المرصوف المؤدِّي إلى المقابر؛ المقابر التي كانت زيارتها صباحًا طقسًا أوليًا من طقوس العيد.. وبعد أن يقرأ الشيخ الكفيف بعض آيات القرآن الكريم على أرواح الموتى، توزِّع الجدّة فطائر الرحمة والبلح والبرتقال، لتلهو (مَيّ) الصغيرة بعد ذلك مع أبناء خالتها وسط المقابر، دون خوف، لتبدِّد بكل قوة طاقتها المدخرة طوال العام، وتقطع خط الرجعة على الأفكار الغريبة التي كانت ابنة خالتها (فريدة) تحكيها لها عن خروج الموتى كالأشباح

من المقابر ليلاً يتمشون إلينا ويعرفون أخبارنا، ويطمئنون علينا، ويغضبون منّا لو أخطأنا . . ولتبدِّد كذلك بكل العناد الكامن فيها خوفها من " أُمْنا الغولة " و "أبو رجل مسلوخة " اللَّذَيْن حكتْ (فريدة) عنهما لتخوِّفها بهما . . كَبُرتْ (مَيّ) وأدركتْ أن هذه الحكايات ما هي إلاّ خرافات من صُنع فتاة مات أبوها قبل أن يُدلِّلها مثل (مَيّ). وأنَّ الغيرة الحمقاء كانت تقتلها كلما ارتدتْ (مَيّ) فستانًا جديدًا وحذاءً يكاد يُخرِجُ لسانَهُ لحذاء (فريدة) الممزَّق، فتزداد (فريدة) إمعانًا في الحكْي وخاصةً في المساء تحت عامود النور الوحيد في الشارع الطويل غير المرصوف المؤدِّي إلى المقابر . . .

يااااااه . . . مَنْ ذا الذي يُرجعها إلى أصوات الطيور والديوك والمواشي والعصافير صباحًا، إلى رائحة الفَحْم في "المَنْقَد" مساءً إذا أُشعلَ لإعداد الشاي أو للتدفئة . . أو لهما معًا . . . تُرى مَنْ يعيدها إلى هذا الجو الريفي الرائع، حتى ولو انقلب الشاي المغلي على كفّها اليُمنى مرةً أخرى . . حتى ولو ضربها جدُّها بعُكَّازه الخشبي عن بُعْد، كي لا تقترب من "برَّاد الشاي" و "المَنْقَد " المُشتعل جمرًا خوفًا عليها، فيرسلها إلى (فريدة) وأخَواتِها لتلعب

معهـن، تحـت عـامود النـور الوحيـد، في الشـارع الطويـل غـير المرصوف المؤدِّي إلى المقابر . .

وفي الصباح جاءتْ العجوز الماشطة وألبستْ فريدة رداءً أبيض جميلاً وطويلاً، كنسَ الأرض وأثار غبارها، عندما جرت نحو المرآة لتراهُ فيها . . وكذلك أخَواتها البنـات (صـالحة) و(مـريم) . . وفي الحجرة المقابلة لصحن الدار كانت الخالـة تسـتحلف الماشـطة بـألا تقسو عليها . والماشطة تؤكد لها أنه أذى لابُـدّ أن يُبْتَـر، وأنّـه أول أسباب الطلاق . وتوصيها بالنظافـة بعـد ذلـك . . كانـت البنـات تخرج واحدةً بعد الأخرى تصرخ من شدة الألم، كل منهن محمولة على ذراعـي أمهـا، والجلبـاب الأبـيض الجميـل مخضـبٌ بالـدماء و(مَيّ) في حجْر جَدَّتها، تخـتلس النظـرات، وتسـأل مـاذا يحـدث خلف البابَ الموارب قليلاً . . فيما كانت تشاركهنَّ أكـواب اللـبن والدجاج المحمَّر والعصائر الطازجة، بعد كل وصلة بكـاء طويلـة ومُجْهدة، تصبح خلالها وجوه البنات الثلاثة حمـراء مزْرقَّـة كلـون (الكبْدَة النيِّئة) تمامًا . . بعدها تنام (مَـيّ) في حجْـر جـدتها، وتنـام الفتيات نومًا عميقًا كالدجاج المذبوح، لكنها تصحو مفزوعة علـى صراخ البنات . . وبعد عامٍ واحدٍ فقط جاء الدور على (مَيّ) .

- إيه ده يا عم (مسَلَّم) . . ؟

- الحاج (محمود) تحت وبعتني بالصندوق دَه .

- إيه إنتو اتصالحتوا . . . ؟

- هنعمل إيه يا ست هانم . . الحاج محمود طيب . . هُوّه بس اللي عصبي حبِّتين .

- فيه حاجه تاني . . ؟

- أيوه . . صندوق كمان في الأسانسير .

(مَيّ) مندهشة . . ما هذه الصناديق وعلى ماذا تحتوى . . ؟ وقبل أن تُجْهد عقلها في التفكير قرأتْ ما كُتبَ على الصندوق : (Apple Computer) . محمود يحقق لهَا أمنياتها واحدةَ تلو الأخرى . . ؟؟ أم أنها شهوة الشراء وحب اقتناء الأشياء هو ما يحرِّضه دائمًا على ذلك . . . ؟ . . محمود لا يكتفي بوجود الكمبيوتر في المنزل ، بل يشتري جهازًا آخر على أحدث موديل ، ويشترك في شبكة المعلومات العالمية (الإنترنت) فقط من أجل (مَيّ) و(رشا) الابنة الكُبرى . ويصرُّ على أن يتعلم الصغار أيضًا استخدام الكمبيوتر ، وتخزين المعلومات ، بينما هو لا يستطيع

ذلك. بل ليس لديه استعداد للتعلُّم من جديد في هذه السِّن.. عندما تسأله عن السبب يقول لها إن الكمبيوتر مهم جدًا في الأيام القادمة، وأنه هو المستقبل وأنه وأنه.....!! مع أنها تعلم ذلك جيدًا فهي ما كانت تستطيع العمل في شركتها بدون الكمبيوتر..، توقَّعت أن يأخذ الجهاز القديم ليتخلص منه لكنه لم يفعل..

في حجرة النوم الوردية الألوان ذات الستائر المُشجَّرة والمرآة المستطيلة الكبيرة والمفارش والأغطية الزاهية، (مَيّ) تبدِّل ملابسها وراء (البارافان) الأرابيسك العريض، كعاداتها، تحاول إخفاء جسدها عن عيون زوجها محمود. ترتدي ملابس أخرى بسرعة. تتوقع مجيئه إليها في لحظة وهي بهذا الشكل. ترتعش أكثر، فترتبك، لا تعرف أول الجلباب من آخره، تبحث عن فتحة الرأس وفتحتيِّ الأكمام، عندما تجدها تتنهَّد تنهيدة مَنْ وجد ملاذه بعد جُهد جهيد، ترتديه بسرعة، تتوجه نحو باب الحجرة، قدمُها اليُمنى خارج الحجرة، واليسرى داخلها، يُفاجئها بصوتٍ يرعدها:

- إلى أين أنتِ ذاهبةْ..؟!

- لأُطلَّ على الأولاد . .
- أما من كلمة شُكر لزوجك؟
- شكراً يا حاج محمود . .

كان يريدها أن تشكره بطريقته المفضلة . . لكنها قالت له " شُكراً " بالضبط كالتي قالتها لعم (مسلَّم) منذ نصف ساعة تقريبًا . . تستكمل طريقها نحو الصالة، يرعدها صوته مرةً أخرى :

- إلى أين أنتِ ذاهبةً . . . ؟
- أتريد شيئًا . . . ؟؟

وبلهجة بوليسية آمرة يجيبُها مفصحًا عن طلبه وهي تتحرك إلى الخارج . وقبل أن تفكر في تصرُّف معاكس وتضيِّع عليه الفرصة . يعيد الأمر عليها : (تعالي هنا) تتراجع في خطوات ثقيلة ومملَّة كمنْ يذهب إلى قَدَره المجهول، تُتَمتم بصوت ممتلئ وجعًا : (مفيش فايدة . . هيَّ لَيلهْ باينَهْ منْ أوِّلها) .

عندئذ تتسحَّب القطة السِّيامي البيضاء إلى قدميِّ (مَيّ) . و(مَيّ) تشفق عليها . . تحملها بين ذراعيها في حنان الأم تمامًا . . تبادلها النظرات الرقيقة الناعمة وتخرجها من الحجرة هامسةً لها :

" اذهبي الآن وسأحضر إليك حالاً بعد دقيقتين على الأكثر " .
تغلق الباب خلفها وكأنها تغلق القفص على نفسها مع أسد جائع حرموه من الطعام منذ شهر تقريبًا ، ثم زجّوا إليه البطل في حلبة مصارعة في فيلم من أفلام سبارتكوس القديمة في السبعينيات .
وبعد دقيقتين بالضبط كان محمود قد بدأ في إرسال شخير عالٍ ممزوج بصفيرٍ متقطِّع .

* * * *

obeikandl.com

(٤)

حُجرَةُ المُوسيقَى

أكره جسدي . . إحساس بالكُرهِ عميقٌ جداً كبئرٍ سحيقة . . أكره ذلك الذي عاملوه بمنتهى القسوة والعنف، ولم يستطع الدفاع عن نفسه . . أكره ذلك الضعيف المنتهك وأتوقع تعرضه لانتهاكات أخرى آتية . . أكره الجلباب الأبيض . والفستان الأبيض لشبه كبيرٍ بينهما في طقوس العُرس . . فقد أعطوني في يوم العُرسِ الأول لعبةً، ويوم العُرس الثاني عريسًا . نفس الجلسة (القرفصاء) . ونفس العجوز الماشطة، ونفس الطبول والزغاريد الحمقاء، ونفس الفرح الأبله الذي أُقيم في (السُّبوعَيْن) . . . نفس الفرحة الغامرة على وجهِ أمي، والتي كانت تشبه فرحة الجندي المقاتل العائد بالنصر منَ معركة دامية طويلة، دماؤها على فستاني وأنا الشهيد الوحيد فيها . . تُرىً مَنْ الذي صنع المجرم فيَّ . . ؟ ومَنْ الذي صنع المجرم فيهم . . . ؟ مَنْ الذي أيقظني علَى . . . . . .

– ماما، اصحي، اصحي بقَى أنا جعان .

جرس الباب يـدق . (فريـدة) وقـد أصـبحت تعمـل معهـا في الشركة، خريجة كلية التجارة، متحررة إلى حد كبير، كسرتْ كـل التقاليد الموروثة والحواجز التي كثيراً ما تقف أمام الإمساك بلحظـة المستقبل المشرق. كسرتْ التقاليد والعادات التي تركتها في الريف. فهرولتْ وراءها وسكنت معها في القاهرة.

(فريـدة) ممشـوقة، فارعـة الجسـد أيضًـا، ممتلئـة قلـيلاً عنـد الجانبين، رقبتها مثل البلورة المسحورة، مستطيلة، يتدلَّى منها عقد جديد من اللؤلؤ.

– مبروك، جميلٌ جداً هذا العقد عليك.. سيأكل قطعةً مـن رقبتكِ.

– (أحمد) أهداني إياه بالأمس..

– ألم تسـتوعبي الـدرس بعـد..!!.. ألسـتِ خائفـة منه..؟..

(مَيّ) تعتبر نفسها أُمًّا لفريدة مع أنها أصغر منها بعام.. دائمًا تُبدي ملاحظاتها على تصرفات فريدة وطريقة ارتدائها للملابس. و(فريدة) لا تغضب.. يفزعهما صـوت جارتهـا أسـتاذة الجامعـة

التي يضربها زوجها كل يوم في نفس الموعد تقريبًا، ولأسباب تافهة.. (مَيّ) لا تحترمه على الإطلاق، لأن بواب العمارة نفسه لم يصفع (بخيتة) زوجته صفعة واحدة في حياته.. تتملص (مَيّ) من موضوع جارتها وتحاول أن توجّه دفّه الحوار نحو العمل:

- حدِّثيني عن العمل.. ماذا فعلتِ بالأمس.

(مَيّ) تستمع إليها متفاخرةً بقوة شخصيتها، وتقارن بين هذه القوة في العمل، وذلك الضعف الأنثوي الذي أفقدها نفسها في مطلع شبابها مع رجل متهور لم يحافظ عليها رغم حُبِّه لها. رجلٌ أفقدها حرية الحركة بين أسرتها وجيرانها وصديقاتها، وألزمها الفراش مريضةً بشيء وهمي غير معروف. عندما أحضروا لها أكثر من طبيب لمْ يتعرفوا على مرضها. وعندما باحتْ بسرّها لـ (مَيّ) لم تصدِّقْها؛ لكنها أخذتها إلى مستشفى السلام بالمهندسين لعمل التحاليل الطبية اللازمة ولمعرفة الحقيقة. فكانت المصيبة.. إنها حامل فعلاً. انسحبتْ روح (مَيّ) كانسحاب روح ضرير يسقط من فوق برج الجزيرة، واضطربتْ حركتها هي الأخرى. لم يكنْ لديها سوى حلٍ واحد، عملية تفريغ فوراً. و(فريدة) فتاة فقيرة، يتيمة، لا تمتلك قوت يومها، وأمها الأرملة لا تعمل.

يعيشون على معاش ضعيف بالكاد، إضافة إلى ما يجود به الأخوال والخالات. . كان علَى (مَيّ) أن تجد طريقة للاقتراض. ففريدة توأم روحها وصديقة عمرها وابنة خالتها. وفريدة إذا أُصيب إصبعها بجرح بسيط فكأن الدماء تنزف من إصبع (مَيّ). و(مَيّ) إذا بكتْ فإن الدموعَ تنهمر من عيني فريدة. . توأمتان لم تلدهما أمٌ واحدة. شيء روحانيٌّ يجمع بينهما. تستطيع (مَيّ) أن تقترض مبلغًا كبيرًا من أحد الأقارب بعيدًا عن والديها. . حتى الجَرَّاح وطبيب البنج ـ بالمستشفى الخاص بمدينة نصر ـ أُعجبا بجسد (فريدة) المتمدد على السرير بين الحياة والموت، بل بين نظرات الاحتقار والريبة في سلوكها. . أيُّهذا الهوان الذي يلاقيه الجسد الأنثوي الجميل. . . ؟! أيُّهذا التوتر والقلق ودوامة البكاء التي لا تنقطع لتقلب حياة البنتين جحيمًا. . ؟! . . ففريدة لم تكن تتصف بالخلاعة أو سوء الخلق. لم تكن تتعمَّد الخروج على القوانين والأعراف السائدة.

لم تكن إلا فتاة بالسَّنة النهائية بدبلوم التجارة. يقفز قلبها من الفرح إذا غازلها شاب في الطريق، واصفًا قوامها بأنه: (فَرَس) أو غامزًا بطرف عينه مُردِّدًا: (أحب المريلة الكُحلي). أو واصفًا

وجهَها البريء والمضيء بأنه: (هوَّ دَه القمر اللي بيطلع الصُّبح) وكأن كل شباب البلد يدركون جيدًا أدوات جسدها الفارع الممتلئ قليلاً عند الجانبين. . وقتئذ لم تكنْ (فريدة) تغضب من العبارات التي كانت تدغدغ مشاعرها بعد استيقاظها من حلم بريء وناعم يروي عطشها النهاري المستمر. . في المدرسة كان يستقبلها مدرس الرياضيات الذي كان يحسب كل شيء بالسنتيمترات. كان يعرف مقاس خصرها. ومقاس ثدييها. ومقاس رقبتها وردفيها. كله بالسنتيمترات، وحتى سمَّانة الساق وأصابع الكفين. . . كان يعرف جيدًا إذا كانت معَدتها قد امتلأتْ قليلاً هذا الصباح، فيعنِّفها لأنها شربت زجاجة (شويبس) في الفسحة تُرطّب بها حرارة جوفها، وتروي ظمأً ليس لها دخلٌ فيه.

عندما كان يرسل إليها عاملة النظافة (الدَّادة) في وسط الحصة، كانت تعلم جيدًا أن الأستاذ عادل ليس عادلاً، لأنه يريدها الآن في الوقت الذي تتلقَّى فيه الدروس، لكنها تعذره. فهذا هو الوقت المناسب تمامًا. وقاعة الموسيقى تبتعد كثيراً عن فصول المدرسة، هكذا يختارون موقعها. . . !!

في آخر يوم في السنة الدراسية، يوم ظهور نتيجة الامتحانات، كان لابد للحبيبين أن يحتفلا بنجاحهما في نفس المكان، قاعة الموسيقى، ووراء البيانو الضخم القديم القابع كتمثال أبي الهول، صامتًا صمت الغاضبين تفتَّقتْ الوردة النائمة، وتفتَّق معها العمر النائم عندما أهداها عقدًا من اللؤلؤ لتزيِّن به البلورة المسحورة ـ رقبتها ـ كما كان يحلو له أن يسميها . . بعدها لم تعد فريدة ترتدي المريلة الكُحْلي، ولم تعد تقتصد في شرب المياه الغازية، ولم تعد ترى الأستاذ عادل أصلاً . . ولم تعد (فريدة) وحدها هي التي تكره هذا الجسد الذي أذلَّها وإنما كرهته (مَيّ) أيضًا توأم روحها ورفيقة عمرها وابنة خالتها، وشريكتها في بحور الدموع التي صنعتاها معًا في حجرة نوم (مَيّ) شريكتها أيضًا في الحادث الأليم الذي تمَّ بالبيت الريفي القديم بالشارع الطويل غير المرصوف المؤدِّي إلى المقابر.

– مَيّ . . إلى أين ذهبتِ . . وفيم تفكرين . . ؟

– أبدًا . . لا شيء . . ستتناولين الغداء معنا اليوم.

– لا . . أنا مشغولة جدًا . . ألا يكفيكِ أنكِ في أجازة تاركةً كل المسئولية علىَّ وحدي . . . ؟ .

- اهتمي بنفسك وبصحتك . . إلى اللقاء . .

- إلى اللقاء . .

تصطدم فريدة لحظة خروجها من باب الشقة بوجه (رشا) الذي يشبه لون الوردة البَمْبِي في منتصف الربيع بالضبط . حرارة الجو جعلتْ من جبينها الوردي الفاتح زجاجة كريستال مكلَّلَة بالندى، تحتها جوهرتان محاطتان بسياجٍ بُنِّيٍ ربَّانيٍ، تحتهما تفاحتان ناضجتان وفراولاية صغيرة واحدة نائمة مشقوقة نصفين :

- أهلاً يا خالتي . . كيف حالك . . ؟

- حمداً لله على سلامتك . . ما أخبار المدرسة؟

- الحمد لله . . كل شيء على ما يرام . .

- كان الله في عونك . . إلى اللقاء . .

إلى اللقاء . .

* * * *

(٥)

شُرودٌ مُرْبِك

أغلقتْ (رشا) الباب وراء (فريدة) وأسلمتْ نفسها لحمَّامٍ دافئ يرطّب جسدها من حَرّ الهجير، وينعش ذاكرتها بعد يومٍ دراسي مكتظ بالمعلومات، وتتهيَّأ لحضور المدرس الخصوصي، فهي في السنة النهائية بالثانوية العامة، ممشوقة، فارعة أيضًا، وفائرة. تعرف جيدًا أنها جميلة.. تأتيها مكالمات تليفونية كثيرة ترعب أمها، وتجعلها تضطر إلى التنصُّت عليها، ورصد تحركاتها، وتوصيلها إلى المدرسة من آن إلى آخر، أو إعادتها إذا لزم الأمر. وترفض أن تأخذ أية دروس خصوصية خارج البيت.. يقلقها دائمًا وقوف (رشا) في الشرفة الطويلة الواسعة المطلّة على النيل، رغم أنها لا تستطيع أن ترى أحدًا حتى لو استخدمتْ الميكروسكوب، كما أنه لا يمكن أن يراها أحد. إنها في الطابق الخامس والعشرين، فلماذا يقلقها وقوفها في الشرفة..؟.. ولماذا يقلقها وقوفها أمام المرآة لفترات غير طويلة إذا قيستْ بقدر انكفائها على مكتبها..؟..

ولماذا يربكها شرود ابنتها ونسيانها البيض الذي يتم سَلْقُه الآن على النار حتى انتشرتْ رائحة الشياط في أرجاء الشقة . . . ؟ . . . ولماذا يضطرب قلبها ويخفق خفقة سماع طبول الحرب في التاريخ الهندي القديم، إذا رأتها تغلق درج مكتبها بالمفتاح وتدس المفتاح في صدرها . . أتصلح صدور الفتيات أماكن أمينة لحفظ أسرارهن . . . ؟ تُرى ما شعورها الآن وقطعة حديدية صلدة وجامدة و(ساقعة) بالطبع . تلمس ثديها الأيسر . . ؟

- ماذا تفعلين أيتها البنت . . ؟

- لا شيء يا أمي . .

- شيء غريب . . ضعي المفتاح في حقيبتك . . ودَعْك من هذا الكلام الفارغ . . ثم لماذا تغلقين الدرج بالمفتاح أساسًا . . ؟؟!

أتوقع بل أؤكد لنفسي أنها لديها بعض الأسرار . وأتوقع بل أكاد أؤكد أيضًا أنها لا تزال في بداية قصة علاقة عاطفية . . فهي جميلة ولافتة، وجسدها ينافسني في بلاغته ودقَّة ملامحه . . تنخرط البنت الآن ساجدة على ركبتيها تصلِّى صلاة الظهر، فما الذي يقلقني . . ؟ . . أنا أعرف كيف ربَّيتُها . إنها تربية يدي، ثقَّفْتُها بنفسي . ورفضتُ أن يمر جسدها بأية مرحلةٍ من مراحل الامتهان،

حتى ولو كان الضرب في المدرسة. ورغم إلحاح جدَّتها علىَّ، فضّلْتُ أن أنأى بها عن أي مساس يعرّضُها لخطر يهدِّد حياتها نفسيًا – إذا لم تتم بين يدي الطبيبِ – كما حدث لي في الحادث الشهير الذي ظل شبحًا يطاردني ليال طويلة إلى أن قرأت كتابات د. نوال السعداوي وفتحية العسَّال وغيرهما في هذه المنطقة تحديدًا، وآمنت بها بنسبة ٩٠٪، ثم سألت صديقاتي في النادي فقالت مدام (كاريمان) مؤكدةٌ لي أنها هي شخصيًا لمْ تُجْرَ لها هذه العملية. وأنها تعيش حياتها الطبيعية، ولديها من الأبناء ثلاثة دون أية مشكلة أو أشياء غير عادية، وأن ما يثار حول هذه القضية ما هو إلا وَهْم ومحْض خيال.. ولكن ما الذي يخوفني على ابنتي هكذا....؟

– السلام عليكم.

– أهلاً مستر كول... تفضَّل

– مَنْ يا رشا...؟

(مَيّ) ـ في كل مرة ـ تسأل نفس السؤال.. وفي نفس التوقيت وتعلّق نفس التعليق. تعلم جيدًا أنه المدرِّس.. لكنها تؤكد له

وجودها في المنزل. وتؤكد لنفسها حرصها على ذلك الوجود في هذا التوقيت بالتحديد..

- الأستاذ يا ماما.

- فليدخل إلى الصالون..

قبل التوجُّه لحجرة الصالون يتوقف المدرس قليلاً أمام آية الكُرسي المعلَّقة في مواجهة الباب. يتأمل زخارفها أولاً. ثم يتأمل حروفها بعناية شديدة، يقرأها باهتمام ملحوظ.. يُفاجأ بوجود (مَيّ) أمامه ترحب به، تلاحظ انشغاله بالآية القرآنية ممعنًا النظر فيها وهامسًا بكلماتها، يكاد لا يشعر بوجودها بجانبه.. تندهش:

- أهلاً مستر (كول).

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

تتعجّب (مَيّ) للردِّ، وتنصرف دون تعليق. في الحجرة المقابلة لباب الشقة يجلس مستر كول منتظراً تلميذته، يقلِّب في الكتب والكراسات المستعدة على المنضدة، تستوقفهُ جُملة " بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين " التي كتبتها (رشا) بخط يدها في مفتتح كراستها.. يقرأها مرةً أخرى، يتأمل كمَّ الصور الشخصية

المعلَّقة، الجدران ستكون أرق وأشيك لو تمَّ تخفيف كمية الصور التي عليها، يتأمل جيداً (قماش) الصالون المذهَّب بألوانه البديعة. تأتيه صور الزهور وأوراق الشجر وخطوط زخرفية عشوائية تحيط بها وكأنها ترسم كلمات محدّدة: محمد، الله، صلى، أكبر، محمد، الله، صلى، سبحان، أكبر، سبحان، فيتمتم: " سبحان الله " ويتعجب للقدرة الإلهية التي قادت ريشة الفنان / النسّاج لكي تكتب هذه الكلمات دون تعمُّد مسبق.

تذكر مشهداً رآه في إحدى الصحف لعدَّة أشجار متتالية على رأس طريق طويل في مدخل بلدة ريفية لا يتذكّر اسمها. الأشجار تبدو في تشابكها وتلاحم أغصانها وشكل جذورها وجذوعها وسيقانها على جانبيَّ الطريق وكأنها تنطق بشهادة " لا إله إلا الله محمدٌ رسول الله " مؤكدةً أن اليد الإلهية العليا هي التي فعلتْ ذلك.. وأن الطبيعة نفسها ـ أرضًا ونباتًا وهواءً ـ تنطق بالشهادة.. يقارن بين المشهدين ويفكر في أنْ يأتي بكاميرا ويصور الكلمات التي قرأها على قماش الصالون وينشرها بالجرائد على غرار الصورة السابقة..

يتذكر أيضًا ما حدث له قبل مجيئه إلى القاهرة واستقراره بالعمل بالجامعة الأمريكية كمدرس لغة ألمانية منذ حوالي ١٥ سنه، كان قد أحب القاهرة من خلال أصدقائه في الجالية المصرية بألمانيا، والذين افتتحوا معهدًا لتعليم اللغة العربية والدراسات الإسلامية هناك. وأنه بالاحتكاك بهم قد تعلَّم بعض التعاليم الإسلامية التي أحبها وأدمنها وتفاعل معها، وأنه وقتئذ أحسَّ بأن شيئًا فطريًا قَدَريًا هو الذي هيَّأ ظروف التعرف عليهم، وها هي الأقدار تلعب لعبتها معه مرةً أخرى فتهيّئ له ظروف التعرف على (رشا) وعائلتها وقطتها أيضًا. . . . . .

كانت القطة السِّيامي البيضاء بعيونها التي تشبه عيون (مَيّ) تمامًا تمر أمام الأستاذ (كول)؛ فيتبادلان النظرات التي لم يفهمها جيدًا. . . يدرك أنها تقول شيئًا لكنه يحتاج إلى وقت كاف لقراءة هاتين العينين، وعلى سجادة الصلاة المفروشة على كنبة الصالون نامتْ القطة طوال الوقت في هدوءٍ تام.

صوت المفتاح يعربد في باب الشقة. . (محمود) يؤكد وجوده متسائلاً بصوت مرتفع لا يخلو من المداعبة المصطنعة:

أين أنتم. . .؟

الطفلان الصغيران يجريان إليه، يتعلَّق أصغرهما في رقبة أبيه فيعطيه الشيكولاتة، ويقف الثاني منتظراً دوره. يفاجئه الأب بجهاز (أتاري) موصيًا إياه ألا يخرِّبه بسرعة ومناديًا على (مَيّ) ليعطيها أحدث فساتين مصْنعه. مخصصًا لها المقاس والألوان التي تحبها وعلبة صغيرة بها مجموعَةَ (ديسكات) كمبيوتر وC.D قائلاً لها:

- لكي تحفظي مؤلفاتك عليها أفضل.

فهذه هي أحدث طريقة يستخدمها العالم الآن في حفظ الكتب.

(مَيّ) تتعجب من طريقة الرجل في التعامل مع الناس ومع الأشياء.. هي تعلم جيداً أن هذه هي أحدث طريقة لحفظ الإنتاج الفكري. وهي الأبقى مستقبلاً، لكنها لم تفكر في تنفيذها الآن.. تنظر إليه مبتسمة تتوقع ليلة أخرى أكثر نكداً.

* * * *

(٦)

خَوْفٌ بِحَجْمِ الْحَيَاة

في الصالة المستديرة الأرائكْ مع بدايات وقت العصر المذيب للأعصاب أساسًا، هذا الوقت الذي يُرخي ضوءه الممتزج بحُمْرة غروب الشمس، والذي يتماهَى فيه لون الغروب مع الأشياء مروراً بالنوافذ الزجاجية العسلية اللون، بَدَتْ (الأباجورة) الكبيرة والنجفة والمروحة والتماثيل الصغيرة و(الفازات) بظلالها المتضاعفة الحجم عشرات المرات، بَدَتْ ممدَّدةً على الحوائط، لتصبح الصالة الواسعة غابة استوائية، أو فضاءً لا حدود له، مصلوبة فيه أشباح صامتة.

و(مَيّ) جالسةٌ في الركن، يرفسُها شبح الظَّن والخوف والوساوس، حين ترى ظل ابنتها (رشا) على الأرض متمدّداً خارج حجرتها، ومنحشراً بين فتحة الباب الموارب وهي تصفف شَعرها، وتتجمل في مرآتها... ليس أبعد ما يمكن أنْ يُتصوَّر.. إنه أقرب ما يمكن أن يُتصوَّر.. الفتاة ذات السابعة عشرة ربيعًا تتجمَّل قبل مجيء المدرس... آه... هل وقع المحظور...؟..

هل يحبها المدرس أم أنه يتلاعب بعواطفها الناشئة . . . ؟ . . هل يشير إليها من بعيد أم من قريب . . ؟ . . ماذا يقول لها . . . ؟ . . هل يقول لها كلامًا معسولاً . . . ؟ . . أم أنه من النوع الذي لا يتكلم كثيرًا . . . ؟ . . وآه لو كان من النوع الذي يكون فعله أقوى من الكلام . . . وما موقفها هي منه بالضبط . . . ؟ . . هل تشجِّعه وتشاركه ذلك . . ؟

الأشباح تتزايد طولاً على الحوائط . . . وبماذا هو معجبٌ فيها، رقتها أم عقلها أم جسدها . . . ؟ معظم الرجال لا يعبدون في المرأة إلا الجسد. القليل النادر منهم هو الذي يرى أشياءً أخرى في المرأة . . كعقلها مثلاً . . . ! ! بل متى بدأ يغازلها . . . ؟ . . إن باب الحجرة لا ينغلق عليهما إطلاقًا . . أسمعهما جيدًا . . وهو مدرس لا يضيِّع وقتًا. الأجانب جميعهم لا يضيعون وقتًا حتى في استغلال عواطفهم. إنهم يمارسون حقوقهم في كل وقت وفي أي مكان لديهم جُرأة غير عاديّة. أم أنه تطبَّع بطِباع المصريين . . ؟ . . فكما يجيد اللغة العربية بالفصحى وبالعامية المصرية، وكأنه مولودٌ بهما، فهو بالتأكيد يعرف طِباع المصريين جيدًا . .

(مَيّ) تخرج من صمتها، من وساوسها، تتنهَّد تنهيدة مفعمة بالألم والأمل، مصحوبة بكلماتٍ هامسة:

- ربنا يهديك يا مستر كول.

تطلق صرخة "مكتومة" على أثر فعل السكين في سبَّابتها اليُسرى وهي لا تدري كيف جاءت إلى المطبخ، أو متى شرعتْ في إعداد عصير الليمون المثلَّج للمدرِّس.. الدماء الغزيرة القانية تتدفق من جرحٍ مفتوح كضفَّتَيّ بحرٍ عميق.. تضع الجُرح تحت ماء الصنبور. الدماء تتدفَّق، تلتقط منديلاً ورقيًا، تلفُّهُ بإحكام حول إصبعها وتضغط على الجُرح لكي تكتم النزيف. تستكمل صُنع العصير. الدماء ملأتْ المنديل، وانفرشتْ فيه.. شكل المنديل الأبيض الملفوف على إصبعها مختلطًا بالدماء يذكِّرها بالمحْرمة. تزداد غيظًا. تُلقي المنديل في صندوق القمامة، وتلعن العصير والسكين والورق الأبيض واللون الأحمر وكل الألوان التي في الدنيا... تُعدُّ صينيَّة التقديم، وتضع كوبين من العصير فوقها. تتوجَّه نحو حجرة الجلوس. يأتيها صوت المدرِّس من بعيد. تطمئن قليلاً. تقترب فيرتفع صوته أكثر... تفاجئُهُ:

- العصير مستر كول.. تفضَّل.. أتريد شيئًا آخر..؟

- شكراً لحضرتك . . لا داعي للتعب يا هانم . .

- إطلاقًا . . ليس هناك تعب .

نظراته للبنت ولها لا تعجبُها . . فسَّرتْها تفسيراً مُرتَجَلاً وسريعًا، تفسيراً غير واضح، شعرتْ بجفاف شديد في حلقها . هزَّتْ كتفيها، وخرجتْ واضعةً يدها على قلبها خوفًا، وهي تلعن الألماني ودروس الألماني ومستر كول وهتلر نفسه . . تقف وراء زجاج شرفة الصالة تفتحه، تتأمل القاهرة من أعلَى، كل شيء أصغر من حجمه : السيارات والبشر وأعمدة الإضاءة، كل شيء أصغر إلا حُزنها الدفين وآلامها الممتدَّة كالغابات الكثيفة . وإلا خوفها على ابنتها الذي أصبح بحجم الحياة . . تدوخ، تكاد تشعر بالأشباح، بالظلال التي وراءها، وكأنها تزجُّ بها من الشرفة لتسقط في الشارع .

(مَيّ) تسمع نفسها فعلاً وهي تسقط متناثرة الأجزاء . تتراجع إلى الوراء . على أصابع قدميها تتحرك ببطء شديد في الصالة، ونحو المطبخ ثم تعود . الدقائق تمر كالساعات . خطواتها ثقيلة كجبل . . بلا إرادة تطل على (محمود) في حجرته، إنه يغطُّ في نومه العميق . . تمط شفتيها وتعود . ليس هناك شيء محدّد تفعله .

الأشباح موجودة، لا يزال بعضها يتراقص، تحاول طَمْأنَـة نفسـها بصوت مسموع:

- إنَّها حركة الستائر. . . . . .

تتوجَّه نحو المطبخ مرة أخرى. صوت المدرس ينخفض جـدًا. تسرع إلى حجرة الأبناء. تطلُّ عليهم، يلعبون وينشغلون بلـهْوِهم الجميل، تحسدهم على خلوِّ أذهانهم، تبتسم وتعود أدراجها، تمـرُّ في مكْرٍ على حجـرة المـدرِّس، تحـاول طَمْأنَـةَ نفسـها مـرة أخـرى بصوتٍ مسموع لها وحدها:

- كل شيء تمام. . بينهما المنضدة. . المـدرس يكتـب شـيئًا في كراستها. . .

لكن قلقها يتزايد بعد لحظات، وتوترها يتفوق على سكونها. فتشعلُ الموقد، لا تدري لماذا أشعلتْهُ، تحاول أنْ تجد مبرِّرًا لـذلك. تفكِّر في عمل شاي للمدرس كي تراقب الموقف عن قرب. قطتهـا السِّيامي البيضاء تأتي في غير هـدوء وخُبـث تعلمـه عنهـا جيـدًا، وتشدها من ملابسها.

(مَيّ) تنتبهُ لحركة القطة غير العاديَّة. تنظر في عينيها، تتبادلان النظرات. قلب (مَيّ) يسقط بين قدميْها. صوت مياه الصنبور في البرَّاد يكسر حدَّة التوتر والقلق، ويبدو الصمت المطبق الذي ينهش جوانحها. تفتح الراديو الذي اتخذ موقعًا بين أدوات المطبخ.. يأتيها صوت الفنانة (آمال زايد) في مسمع من فيلم قديم:

- (يا مآمنة للرجال يا مآمنة للميَّة في الغُربال.)

تغلقُهُ مطقطقةُ بلسانها وصائحةً: (يا اختْي أنا ناقصاكي) فليس هذا وقته. تعود لصمتها الذي صار وحشًا إغريقيًا قديمًا يخرج من بين الأدغال مكشراً عن أنيابه وقاصداً قلبها تحديداً، تشاكسها الأفكار الغريبة والظنون المريبة، تتمتم:

- اللهُمَّ اخزيكْ يا شيطان...

انتهتْ من عمل الشاي. تتوجَّه به فوراً نحو المدرس وابنتها، يداه مسافرتان في شَعر ابنتها الكثيف الناعم المنسدل على كتفيها يغطي وجهَيْهما تمامًا...

(مَيّ) أحستْ إحساس مَنْ ضُربَ برشاش من طراز مينيزيس ٩ ملّلي المزوَّد بكاتم صوت، والذي يطلق عشرين طلقة في

ثانيتين . وفجأة وبدون مقدمات لم تتمالك أعصابها ، الصينية تقع من يديها . . عيناها تصبحان أوسع من عينيِّ صَقْر جارح ، وأعمق من بحر تتلجْلجُ فيه الأمواج . تشعر باختناق وكأَنَّ شجرةً هائلةً كثيفة الأغصان قد انحشرت في حلقها . بقوة غير منقوصة يندفع صوتها من حلقها بعد تعثُّره وكأنه ثورٌ هائج في حلبة المصارعة ، تصرخ :

– إحساسي لا يكذبني أبدًا . . يا للكارثة .

وَجْهُ (رشا) يصبح مذعوراً كمن فزعَهُ أسدٌ هائج في مكان غير حديقة الحيوان ، وحيث لا يُتوقع وجود أسدّ أصلاً ولا حتى فأر :

– ماما أرجوكي صوتكِ عالٍ .

– إذنْ أنت خائفةٌ من أن يسمعنا أحد . . والدك مثلاً . . وتعرفين أيضًا أنَّ هذا خطأ . . وأنت يا أستاذ ، يا محترم ، يا وقور . . ماذا أقول لك؟ حسبيَ الله ونعم الوكيل .

تخرج من الحجرة والذهول يحوِّل وجهَها إلى خريطة فرعونية ، من الصعب أن تُفَكّ طلاسمُها . علامات استفهام كثيرة تُرسَم أمامها . . . آخرها :

– ماذا يمكن أن أفعل . . ؟ ! ! نحن في آخر العام . ولن يقبلها مدرس آخر مهما دفعنا له . . ؟ ! مجموعات التقوية أرفضها . وأبوها يرفضها بشدة؟

. . . . . ؟ . . . . . ؟ . . . . . ؟

وسط الأشباح التي لا تزال موجودة تجلس (مَيّ) لتفكِّر بهدوء الحُكماء . عندما تهدأ تجد نفسها تزن الأمور بمنطقيتها المعهودة .

وبحكمة شديدة تسأل ابنتها فتجيبها ببراءة الأطفال أنها تحبه . وأنه ذو شخصية مُبهِرة . صحيح أنه ليس مصريًا . لكن ماذا تفعل . . إنه يحبها كذلك ، وهذا لا يعطلها عن المذاكرة . إذا كان هذا ما يدور في ذهنك يا أمي فاطمئني ، أنا متقدمة في الدراسة . تفاجئها (مَيّ) كمن يعرِّف شخصًا على نفسه : أنت طفلة لا تزالين طفلة . فتنكر البنت بشدَّة ، فتُلقِّنها (مَيّ) إجابةً أخرى : أقصد أكبر من طفلة بعض الشيء ، أنت مراهقة . نعم تمرِّين بمرحلة المراهقة ، سوف تتأكدين من ذلك بنفسك بعد فترة عندما تدخلين الجامعة . ستقابلين الكثيرين ، وسوف تكون الفرصة أمامك أكبر للاختيار السليم . إن ما تشعرين به الآن هو محض مفاجأة ، إنه إرهاصات مشاعر ، لأنه هو الرجل الوحيد الذي أمامك . أما المشاعر الحقيقية

فهي التي سوف توجِّهك نحو رجلٍ بعينه من بين جميع الرجال . . رجل يملك قلبك وعقلك بالفعل، يملأ عليك حياتك، فتتوقف الدنيا عنده توقفًا حقيقيًّا لا مفر منه .

(مَيّ) تحاول أن توجه تفكير ابنتها نحو المذاكرة فقط، ليس في ذهنها أي شيء آخر . . الثانوية العامة كابوس مرعب . . تمنطق الأشياء كعادتها . . تُعملُ عقلها وتريد أن تجعل من ابنتها نسخة أخرى منها في طريقة التفكير والوعي بالأمور، وتأجيل المشاعر إلى حين، كما هي نسخة منها في أشياء أخرى . .

لمْ تتناقشا طويلاً . فقط أعطتها بعض النصائح بعد أن استدرجتها في الحديث على ألاَّ يتكرر ما حدث :

- ما الذي يعجبك فيه يا (رشا) . . ؟

- كل شيء يا أمي . . عقله، اتزانه، وقاره، شياكته، ثقافته، طريقته في التفكير، التزامه ثم إنه مُهذب جدًا يا أمي . .

- (بفتور وعدم مبالاة) ما هذا كله . . ما هذا كله . . ؟!

- أتصدِّقين يا أمي إن قلتُ لك إن ميدالية مفاتيحه فيها آية الكرسي . لقد قال لي إن هناك شيئًا ما يربطه بالإسلام . . و . .

- وما الذي يعجبه فيكِ يا (رشا) . . ؟

- يقول إنني جميلة، وهادئة، وجسمي مثل الغزال .

آه من هذه الكلمة . . كم أكره الحديث عن الجسد بهذا الشكل . إنها الجسر الناعم المخدِّر للأعصاب الذي يطلقه آدم دائمًا للوصول إلى أغراضه . . . الجسد الجميل يجلب لصاحبته المشكلات والمتاعب . . كانت (مَيّ) قد سرحتْ للحظة . . يفاجئها (محمود) بجملته الشهيرة :

- ماذا بكما . . . ؟

- لا شيء . . لا شيء . .

- طالما تتهامسان إذن هناك ما تخفيانه عنِّي . . أنتِ التي أفسدتِ هذه البنت .

- يا محمود كل شيء في الدنيا يتغير . . علم النفس الحديث يقول . . . . . .

- نعمْ نعم . . ادخُلي معي في حديث المثقفين الذي لا أفهمه، كي تظهريني غبيًا وحمارًا . . أليس كذلك . . ؟

- يا محمود . . ليس هكذا يكون الحوار . .

– هيَّا هيا . . أعدي ليَ الشاي . . أريد أن أذهب إلى المصنع . .

لم يُصِر (محمود) على معرفة المشكلة . . بل ليس لديه استعداد لمعرفة أي شَيء في أي شيء . . محمود قصير النَفَس، عندما يتصفح الجريدة ـ في القليل النادر ـ لا يقرأ سوى العناوين ويلقيها بجانبه بعد دقيقتين بالضبط . . ومع ذلك يشتري الجرائد يوميًا . وعندما تسأله (مَيّ) لماذا تشتريها . . ؟ . . يبادرها بإجابة مقنعة جدًا ترضي غرورها :

ـ أشتريها من أجلك . . ألست تحبين القراءة . . ! ! لكنها تفاجأ بأنه يعرف كل ما يدور في المجتمع مثلها تمامًا هي المثقفة، المتابعة : الوزير (الفلاني) استقال، الوزير (العلاَّني) جاء مكانه، كانوا سيغتالون صفوت الشريف، العراقَ احتلت الكويت، أمريكا (مش هتجيبها البر) يبنون المستوطنات في فلسطين، نتنياهو لن يكسب الانتخابات . . .

فدائمًا هو يطلق هذه الأخبار كالرصاصات في وجهها لا بجانبها ولا خلفها . . في وجهها تحديدًا لكي تعرف (مَيّ) وتتأكد من أنه يعرف كل شيء مثلها تمامًا، دون أنْ يحتاج إلى قراءة الجرائد

والكتب الكثيرة التي ملأتْ البيت وضاقت بها الطرقات والأرفف.

عندما عاد مساءً، حكَى لها عن (حامد) و(حياة) اللّذَيْن تزوَّجا سرًّا.. وأضاف أن (حياة) تعاني من مشكلة، فهي حامل، وزملاؤها وجيرانها لا يعلمون بزواجها، وأنَّ... وأنَّ... وأنَّ... وماذا تفعل..؟ وماذا تقول...؟ النذل الحقيرُ، (دي فضيحة).

كانت (مَيّ) تستمع إلى الحكاية وكأنها سمعتها من قبل، فجاء الكلام مشوّشًا أحيانًا، ومبتوراً أحيانًا أخرى، وله صدى أحيانًا ثالثة وكأنه يأتيها من بعيد، يأتيها من زمنٍ قديم مهجور، زمن بجدران عالية تُرجع إليها الصَّدى.. فلم تتنبّه سوى للجملة الأخيرة (النذل الحقير، دي فضيحة)..

صوت صفير سيارة الإسعاف يجعل الشارع في هرجٍ ومرج، وكأن الدنيا قد انقلبتْ الآن رأسًا على عقب. عندما نظرت (مَيّ) من النافذة لم تستطع معرفة شيء.. فقط معاطف رجالي بيضاء، تحمل خشبة مستطيلة عليها شبح إنسان مغطًّى بملاءة بيضاء. يبدو المشهد أقل من حجمه بكثير، السيارات تضيق ذرعًا بسيارة

الإسعاف وانتظارها في منتصف الشارع، أصحاب السيارات لا يرفعون أيديهم من على الأبواق. النَّقالة تدخل سيَّارة الإسعاف وتنطلق بسرعة إلى المستشفى طبعًا.

بعد ساعة واحدة عرفتْ (مَيّ) من جارتها عن طريق الهاتف أنها كانت الأستاذة الجامعية التي لا يعرفون اسمها، والتي تعوَّد زوجها أن يضربها ضربًا مبرحًا أفقدها الوعي هذه المرة، وأصابها بجروح جسيمة، فاضطر البواب وبعض الجيران إلى الإبلاغ عنه وطلب الإسعاف لإنقاذها.. علَّقتْ بكلمةٍ واحدةٍ:

المجرمْ.....!!

****

(٧)

المَلائِكَةُ يَعِشُونَ بَيْنَنا

(مَيّ) تطمئن على أحوال شركتها. تؤدي بعض مهام العمل من مقعدها المفضل بالصالة، مكانها الأبدي المطل على النيل حيث السماء ـ كما تبدو من شرفتها ـ أكثر رحابة. (مَيّ) تحب الأماكن الواسعة جدًا، تختنق في الأسانسير، وتعمل ألف حساب لسَحْبَة الروح التي تشعر بها عند ارتفاعه فجأة.. انتهت الآن من أعبائها العملية والمنزلية. أبناؤها ينعمون بنوم هادئ. صمْتٌ عريضٌ وقاتم يظلِّل المكان. دقات ساعة الحائط تدق فوق رأسها بالضبط بصوت له صدَىً رتيب ومُملّ، يتعانق مع أصوات أخرى بعيدة آتية من داخل رئتيها تشبه ـ تمامًا ـ أصوات الرِّيح العاصفة في صحراء شاسعة مختلطة بأصوات دقات قلبها السريعة المتتالية.

كان عليها أن تتحدث في الهاتف لأمر هام، تضغط على أرقام الهاتف بعصبية الجالس أمام ورقة الامتحان ولا يعرف إجابة أي سؤال فيها، رغم الجهد الذي بذله في المذاكرة طوال العام. وعندما انفتح الخط دخلتْ في الموضوع مباشرةً:

- محمد . . من فضلك . . أريدكَ حالاً .

- خيراً يا أمي إن شاء الله . . (هكذا يحلو له أن يناديها) ماذا هناك . . ماذا جرى . . ؟

- لا تقلق . . إن شاء الله خيراً . . شيء عادي . .

لم يكن (محمد) أخوها مجرد أخ ؛ وإنما كان صديقًا حميمًا يعرف كل شيء عنها وعن حياتها الخاصة والعامة ، كان قريبًا منها جـدًا ، يحلو له أن يناديها بأمي . . عندما جلس بجوارها وهي تقود سيارتها بجنون في شوارع القاهرة ، كان يتمزق قلقًا عليهـا . أختـه الوحيـدة الكبيرة التي حلَّتْ محل أمه بعد وفاتها مرتبكة تقود سيارتها بجنون ، تقطع المسافات ، تتخطَّى إشارات المرور ، تبـدو السـيارة كحـوت يبتلع البيوت والمحلات والأشجار . يحاول (محمد) أن يهدِّئها لكنهاً عند موقفها . فجأة يجـدان أنفسـهما فـوق قمـة جبـل المقطـم ، لمْ تتوقف (مَيّ) إلا عندما صرخ فيها وهو يشدُّ فرامل اليد :

- حاسبي يا مجنونة . . إلى أين تذهبين بنا . . ؟!

تمالكتْ أعصابها بصعوبة، ضغطتْ على الفرامل بسرعة فتوقفت السيارة على حافة الجبل بالضبط. تمتم (محمد) بصوت حزين ومؤلم:

- كدنا نموت.. لكن يبدو أن الله قد كتب لنا عمراً جديداً..... الحمد لله..

(مَيّ) صامتة لا تنبس ببنت شفة.. لا ترى سوى ظلام الليل غولاً ضخمَ الملامح، باسطًا ذراعيه، يحتضن القاهرة بأكملها. وفي عنف الكائنات الغريبة ـ التي قرأتْ عنها في الأساطير الإغريقية القديمة ـ رأته يعتصر القاهرة بقوة دون رحمة، يقبِّلها بشفتيْه الغليظتين ثم يقضمها كلها قضمة واحدة بفكَّيه القويَّتين وكأنها لقمة طريّة. حتى الجسد القاهري لم ينجُ من القهر والعنف والاستبداد... والقاهرة تصرخ صراخًا مكتومًا. و(مَيّ) تصرخ بصوتٍ مرتفعٍ يدوي كانفجار في فضاء متسع:

آآآآآآآآآه.....!!

- ماذا بكِ يا (مَيّ).. ماذا بكِ..؟

- كابوس يا محمد . . كابوس . . أمعقول أن تكون أنت رجلاً عاديًا مثل بقية الرجال . . ؟!

- طبعًا طبعًا . . رجلٌ ونصف .

- لا يا محمد . . لا تقل هذا . . فأنت ملاك . . ملاك .

- ماذا بكِ . . لقد حيرتني . .

- ما الذي جعلك تنأى عن الزواج حتى الآن يا محمد . وأرجوك أن تبتعد عن الإجابات الوهمية .

- لا أزال أبني مستقبلي . .

- لا يا محمد . . أنت لا ينقصك شيء . . أنا أعرف السبب جيداً . . السبب هو أنك ملاك ينأي بنفسه عن تصرفات البشر . والزواج من تصرفات البشر . . الملائكة لا يفكرون في الاحتياجات البشرية اليومية . .

- ماذا تعني . . . ؟

- أعني أنك لا تأكل كثيراً ولا تنام كثيراً مثلنا ، وتعيش للعبادة فقط . والملائكة أخف وزنًا من الريشة ، وأنت كذلك . الملائكة يطيرون وأنت كذلك في مشيتك . . الملائكة بصراحة

شديدة لا يفكرون في الجنس، وهذه هي الفروق التي بينك وبين جميع الرجال. . أنا كلما رأيتك أحسستُ أن الملائكة يعيشون بيننا. . . . . !!

(محمد) يندهش من كلام (مَيّ) وينبِّهُها إلى أنها تطعنه في رجولته وأنها خرجت عن الموضوع الذي طلبته من أجله، فتؤكد له أن هذا الكلام من صميم الموضوع، لأن (محمد) بالنسبة لها نموذج نادر في الحياة لا ينظر للمرأة باعتبارها جسد، فكل ما يرتبط بالجسد يربِكُها ويخوِّفها. .

كان القمر قد أغمضَ عينيه في غفوة سريعة، زادت من وحشة القلب الذي جفت به كل الينابيع، فسقطت على ضفافها كل أوراق الشجر التي كانت قد بدأتْ في التبرعُم منذ شهر تحديداً. وعندما فتح القمر عينيه مرة أخرى التمعتْ عيناها التماعة غريبة أدهشتْ (محمد) جداً، وجعلتْهُ يركز في عينيها تركيزًا شديداً. وبنظرة يختلط فيها التحدي والعطف والحب بالأسَى نظر (محمد) إلى صدرها، فوجده يخفق بشدَّة صعوداً وهبوطًا كمن كانت ضمن مسابقة في الجري مسافات طويلة. ثبَّتَ عينيه في عينيها مرة أخرى فوجد فيهما إحساسًا بالإخفاق يتنامَى، إذا توزَّع على الدنيا كلها

يكفيها ويزيد. . رمشتْ رمشةً سريعة فانهمر اللؤلؤ متدحرجًا من أعلَى وجنتيْها يتهاوَى على صدرها الذي يزداد خفقانًا على خفقان، ويصدر أصواتًا غريبة غير مفهومة، مؤكداً مدى الضيق الذي تشعر به (مَيّ).

ظلَّ (محمد) يتوسَّل إليها أنْ تبكي وتنفجر في البكاء لكي تخرِج من صدرها كل هذا الألم، لكي تتطهّر مما يعلق بها، لتعود إليه كما كانت قبل زواجها بعام واحد فقط: المرح ينط من جنبَيْها، والبسمة الطموحة تنطلق من عيونها، ورائحة الندى والمطر والبحر مختلطة بعطرها المفضل تتمادى في الانتشار، خارجةً من كفَّيْها لتملأ فضاءات الكرة الأرضية، والضوء المتوهج في خديها يتباهَى بنفسه بعد أن انكسفتْ الشمس منه ذات صباح فاعتذرتْ في خجل عن الإشراق. نعم كانت كذلك. . وكانت في ذات الوقت شُعلةً النشاط التي تتحدى كل شيء وأي شيء عندما جاء (محمود) وقطف الوردة من حديقتها، من مرحها، وبسمتها وطموحها. . كان ذلك هو الاختطاف اللا بد، والقطف اللا بد أيضًا أنْ يحدث.

كمشاهد سريعة من مشاهد أغاني الفيديو كليب مرَّتْ لحظات من حياة (مَيّ) قبل الزواج أمام عيني (محمد) ليتجاذب

معها أطراف الحديث مرَّة أخرى. فقد أفاق على جملةٍ طالما كرّرتها في جلسات كثيرة غير هذه:

- إنني خائفة جداً على (رشا).. البنت بدأت تحس بكيانها كأُنثى، وتهتم بنظرة الجنس الآخر لها...

- من الطبيعي جداً أن يحدث هذا.. ففي النهاية هي أُنثى، وبدأت مرحلة النضج الأنثوي..

- ومن أين لها برجلٍ بصفاتٍ غير صفات الوحوش المفترسة..؟

- الأسد لا يأكل زوجته يا (مَيّ)..

- أرجوك يا محمد لا تأخذ كلامي بهذه السهولة والبساطة.. أنت لا تدري ماذا يحدث في حجرات النوم.. الحياة الزوجية من وجهة نظرك جميلة، والسماء تمطرها وردًا وفُلاً... ذلك لأنك لم تجربها على حقيقتها.

(محمد) لا يبدي اندهاشًا أو تعجبًا من حديث (مَيّ) لأنه تعوَّد الاستماع إليه من قبل، خاصةً وأنه يعلم كل شيء عن حياتها مع (محمود) وكم حضر مواقف خلاف بينهما في التفكير وأسلوب

الحياة، ويستطيع أنْ يجتهد ليعرف ما تحكي عنه الآن. وبطريقة مقصودة تضع (مَيّ) يديها على كتفي (محمد) لتهزّه بقوة وهي تستكمل حديثها معه مثبتةً عينيها في عينيه قائلةً:

- أظن أن هناك فلسفة معينة من جعْل ألوان حجرات النوم ـ سواء الجدران أو الملاءات ـ لا تخرج عن البمبي والوردي، ألوان توهم الناس بأن الحياة حلوة، لكن الحقيقة تختلف عن ذلك تمامًا..

بطريقة مأساوية جدًا، يشفق محمد على (مَيّ) ويرجوها أن تهدأ، وألاّ تفكر في الموضوع بهذا الشكل الذي سيحطم أعصابها، ويجرّها نحو هستريا الدفاع عن النفس بكل الطرق، مؤكدًا لها أن هناك خللاً ما في علاقتها بمحمود باعتبارها نموذجًا لعلاقة غير منتشرة، لكنها تنفي ذلك وتؤكد له أن عددًا كبيراً من النساء تعانين من هذه النقطة، لدرجة أنه انتشر بينهنّ مصطلح غريب أسموه جميعًا (الاغتصاب المشروع.....!!!!!).

وقعت هذه الجملة على رأس (محمد) كالصاعقة. فلم يكن يتصور أن الأمور وصلت لهذه الدرجة.. مرارة العالم كله في حلقها، وقد أحس (محمد) بغُصَّتها في حلقِه هو، وتملَّكتْهُ ارتعاشة

خفيفة تسرّبتْ من يديه إلى قلبها، فاعتذرتْ فوراً لأخيها بصوتٍ يترقرق ألَمًا وندمًا على توريطه في هذا الإحساس المؤلم.

نظر باهتمام في عينيها، فوجد الدموع وقد توقّفتْ على حافتيهما. رمشتْ رمشة سريعة، فاستقبل خدَّاها نَهْرَيَّ اللؤلؤ المنهمرَيْن خيوطًا مضيئة لامعة، كلما اقتربت أطرافُها من صدرها غابت في نسيج بلوزتها غياب الشمس في ضمير الوجود وقت الغروب بالتحديد.

بيده النحيفة المتناهية في الرقة مسَحَ خدَّيْها، واستجمع قواه، وربَّتَ على كتفَيْها، هزَّها هزَّةَ مُداعَبَة مصحوبة بابتسامة مصطنعة. تلجلج، ثم تنهَّد تنهيدة اليائسين، مستكملاً ابتسامته المصطنعة وقائلاً:

- ألم نكن في قوة الجبال، وجبروت قادة الحروب..؟!

ماذا حدث.. ماذا حدث لك...؟

- لستُ أدري يا (محمد).. لست أدري..

(محمد) لا يزال يرسل إليها نظرات اليائس القَلِق على أخته الوحيدة، الخائف عليها خوفه على نور عينيه من طَرْفَةِ الهواء. فيتمتم بينه وبين نفسه قاصداً زوجها:

- حتِّةْ حمار.....!!!

(مَيّ) بطبيعتها تفهم رد فعل (محمد) وتستطيع أن تقرأ أفكاره، وشفتيه، مهما أخفى عنها، رغم حرصه على ألا يُسْمِعَها تعبيراته وتعليقاته المفعمة بالأسَى وخاصةً في لحظات الصفاء الروحي بينهما، قالتْ:

- أنا لا تهمني نفسي الآن يا (محمد).. ولكن ما يهمني الآن (رشا).. رشا هي الشيء الوحيد الجميل في حياتي..

- كيف أُبعد عنها عيون الناس وخاصة الأستاذ، المدرس الخصوصي..؟!

(محمد) يحاول أن يخرجها من توترها؛ فيبتسم مداعبًا إياها، معترضًا على أن (رشا) هي الشيء الوحيد في حياتها، ومؤكداً وجوده هو في حياتها بكل هذا الجمال وخفة الدم من قبل أنْ تولد (رشا).. فضحكت مؤكدة على ذلك، وعلى أنْ (رشا) لا تزال

صغيرة، وأنها لا تخشَى عليه من شيء؛ أولاً لأنه رجل، وثانيًا لأنه أكبر من ابنتها ويستطيع الدفاع عن نفسه في هذه الدنيا، وثالثًا لأن الوحوش المفترسة التي تقصدها هي لنْ تنظر إليه، ولن تعترض طريقه، ضاربةً بكل الأعراف والتقاليد عرض الحائط، معبرةً عن رغبتها في عدم تزويج ابنتها، وأنها سوف لا تُعرِّضها لأذىً من هذا النوع، وأنها سوف تحتفظ بها لتعيش معها طول العمر، وأنه لابد وبالتأكيد هناك حيلة تجعلها تبقى معها طول العمر، لأن الرجل الوحيد الذي تطمئن عليها معه هو (محمد) لكنه خالها للأسف الشديد.

(محمد) يحاول أنْ يُطمئنَها ويُهدِّئ روعها. يقنعها بالعودة الآن إلى المنزل كي لا يقلق زوجها عليها، وكذلك الأبناء فقد تركتهم منذ وقت طويل. **وقبل أنْ يركبا سيارتها تُمعن (مَيّ) النظر إلى القاهرة من أعلى، تشعر بجسدها وقد صغر جدًا، ليصل إلى حجم قطتها السِّيامي البيضاء، نازلةً من فوق جبل المقطم في انسيابية هائلة، لتقبع تحته مثبِّتةُ عينيها في قمّته فترى راهبًا أو متصوفًا ـ لا تدري ـ عجوزًا جالسًا هناك فوق قمَة الجبل، في العراء، ملتحفًا بالظلام الدامس، صامتًا صمت المتأمل، تتقدم بخطوتها الرشيقة**

صعوداً نحو الارتفاع الشاهق، وفي خفَّة الفراشات تطير في هـدوء وانسيابية ورقة لتحطَّ بجواره فلا تجده. تبحث عنه فتراه هنـاك.. هنااااااااك، تحت الجبل، عند السفح بالضبط، قابعًا القرفصـاء وعباءته البيضاء تختلط بلحيته البيضاء الكثيفة الطويلة مع شـاربه الأبيض. تنزل إليه فيصعد، تصعد إليه فينـزل، يـزوغ نظرهـا، فتُضَيِّق ما بين حاجبيْها، تضطرب دقات قلبها و(محمد) يشدها من ذراعها:

- اركبي يا أمي... لقد تأخرنا..

* * * * من رواية الطريق إلى رومـا...

شريفة السيد

(٨)

الرَّقص على السُّلَّم

تعودُ (مَيّ) إلى نفسها، إلى الكتابة.. ظلت عشرة أيام مشغولة بروايتها الجديدة، تكتب الصفحات تلو الصفحات، تعيد كتابة بعض الفقرات. ستكون هذه الرواية أفضل من الرواية التي فازتْ هذا العام بجائزة عربية كبرى. يحلو لها أنْ تبقى وحدها في غرفة ليستْ غرفتها الخاصة، ولا حتى في الصالة مكانها المفضل، وسطَ الذكريات والهدايا والتحف، فهم الأصدقاء المخلصون... صحيح أنها جمعتْ أشلاء أشعارها وقصصها القديمة من كل صوب وحدب بالشقة استعداداً لحرقها؛ لكنها تراجعتْ في آخر لحظة... فربما يكون لها فائدة فيما بعد. هكذا تتعامل (مَيّ) مع الأشياء دائمًا. لا تتخلص من الورود الطبيعية إلا بعد أن يكسوها التراب ويصعب تنظيفها.. ولا تتخلص من الكتب إلا بعد قراءتها أكثر من مرة إن استطاعتْ.. البيت يزدحم بالهدايا والعُلب والأشياء الكثيرة... فلماذا تمزّق الشِّعر..؟! أجاءتْ على الشِّعر....؟!.. عندما أوشكتْ على تمزيق أشعارها

المخطوطة والمطبوعة أحسَّتْ إحساسَ طفلٍ مشدود من ذراعية لوجود اثنتين من الأمهات، كل منهما تدَّعي أنه طفلَها. . الأولى تجذبه نحوها، والثانية كذلك تجذبه نحوها، وهو بينهما يتألَّم ألَمًا مبرحًا. فما كان من الأم الحقيقية إلا أن تركتْ ذراعه خوفًا عليه من أنْ ينخلع من جسده. فانكشف أمر الأم المزيفة. . .

تذكَّرتْ (مَيّ) هذا المشهد من المسرحية العالمية (الدائرة)، وأطلقتْ ضحكة عبثية غير مفهومة المغزَى، وهي لا تزال تمسك بأعمالها الشِّعرية، متأهبة لتمزيقها وحرقها، ومترددة في ذات الوقت كمن يتردد في عبور الطريق أمام سيارة جامحة، وفي اللحظة الحاسمة قبل مرور السيارة عليه بالضبط يأخذ القرار بالتراجع، فلا يصدِّق أنه نجا.

فَتَحَتْ دُرجًا. ووضعتْ أوراقًا وكُتبًا أُنقذَتْ حالاً من تنفيذ حكم الإعدام فيها بقُدرة قادر. وسَّدتها مظروفًا كبيرًا بُنِّيَ اللون كان قبل عشرة أيام يحتويها جميعًا كموتَى، وتمتمتْ:

نعم قبل عشرة أيام بالضبط كان هذا المظروف يحتوي أشعاري وقصصي. وما أخرجتُها من سكونها الطويل إلا لأقرأها له، وبعد ذلك لم يعد لها معنى. . إذْ لم يعد يتصل كما كان. . ولم يعد

يقول أسمعيني أشعارك يا (مَيّ) . . ولم أعد أنا شخصيًا أتناغم مع الشِّعر . . .

(مَيّ) تبحث له عن عُذر مقبول يجعله متغيِّبًا كل هذه الأيام . . وبعد تفكير عميق وتردُّد مقصود، ضغطتْ على أرقام الهاتف التي كانت تراها كبيرة ومتَّسعة تارةً، ومفلطحةً تارةً أخرى، ومختلطةً مع بعضها تارةً ثالثة . وبصعوبة بالغة فتحتْ عينيها جيداً بعد فَرْكها، وحاولتْ التركيز؛ فعثرت على الأرقام معتدلةً في أماكنها تمامًا . . . وبدلعٍ مقصودٍ جدًا أطلقتْ همستها في أُذُنه مباشرةً:

- إذنْ أنتَ موجود في البيت . . . ! !

- نعم موجود . . . أهلاً بكِ . .

- فما الذي يمنعك من محادثتي كل هذه المدة . . ؟ .

- مظلوم والله يا افندم . . أنا كنت في المَفْرَمَة . . مَفْرَمِة شُغل غير عادية .

- كلنا مشغولون . . أنا غاضبةٌ جدًا . .

- أرجوكي لا تتحالفي مع ظروف غبيَّة ضدِّي . . أنا غير مسئول عمّا حدث بالمرة . . الظروف هي السبب .

– وما الذي يُثبت صدق كلامك . . ؟

– سوف أدعوك لزيارتي في منزلي – رغم صعوبة ذلك، بل رغم تعذّره في الوقت الحالي . . . لن أدعوك لقراءة ما كتبتُ من قصص أو موضوعات، ولن أتركك عند مكتبتي تُقلِّبين محتوياتها . . . لكنني سأتركك في المطبخ، تصنعين لنا كوبين من القهوة . . أحبُّها باللبن . . سوف أُباغتك بحضن دافئ من الخلف . . تنقلب على أثره قهوتك التي تعبت في إعدادها . فأتركك تُعدِّين فنجانَيْن آخرَيْن، لأُباغتك بحضن آخر أكثر دفئًا . . فربما أنسَى على صدرك تجارب متكرِّرة يابسة . . . . لن ينتهي الأمر عند هذا الحد . . ولكن سوف أُشَغِّل جهاز الكاسيت على أصوات الموسيقى الراقصة كي ترقصين لي وحدي . .

– رَقْصْ مرة واحدة . . . ؟!!!! . . ولا عمري فكرت في هذا . . . !!

– أعلم أنك، ما فعلتها قبل ذلك لأحد . . وأن هذا الجسد المتماسك الرزين لم يكن مشاعًا، ولا مُباحًا لأقرب الأقربين، وأعلم أيضًا أن هذا الجسد لم تستدرجْهُ علامات الزمن،

ولم تبدُ عليه علامة واحدة توحي بذلك . . . أعلم أنك اختزنته لي . . لي أنا وحدي . . .

(مَيّ) تشعر بخدر خفيف ورعشة لذيذة تمر مرور إصبع مرتبك على جسدها . . تبتسم ابتسامةً ماكرةً، تدعك قدميها الحافيتين في بعضهما، وتترك لبقية جسدها حرية الارتعاش اللذيذ. تغمض عينيْها وتفتحهما سريعًا، ومع تنهيدة عفوية جداً تنطق بجملة طالما سمعتها من أمها: (الزَّن علَى الودان أمرٌّ من السِّحر) وأنت ساحر، وزَنَّان . . . ماذا تريد . . ؟ . . كأنك تحاول إقناعي بشيء ما، كمن يريد أن يوهم أحداً بأنه مريض؛ فيقول له: وجهك مُصفر، وعيناك زائغتان، بياضهما زائد، يداك ترتعشان . . . . وهكذا . . . حتى ينتقل إليه هذا الجو النفسي فيصبح مريضًا في الحال . . وقد يذهب إلى الطبيب فعلاً طلبًا للعلاج . .

(مَيّ) لا تدري كيف انتهتْ المكالمة . . فقط وضعتْ سماعة الهاتف، لتجد نفسها في الحجرة الباردة . . . تنبطح في هدوء، وتدفن وجهَها بين ذراعيها المضمومتَيْن فوق رأسها . . وبحنان شديدٍ جداً تمرِّر خدَّها وأنفها على ساعدها وتُقبِّلهُ برفق . . عندماً

أتاها صوت الموسيقى ينبعث من حجرة ابنتها خرجتْ (مَيّ) من حُلمٍ رائع لتفاجئها :

- ماذا تفعلين أيتها البنت . . ؟

- أبدًا يا أمي .

- الرَّقص عيب يا (رشا) . . والمذاكرة أهم بكثير . . . .

ترى ما العلاقة بين الرقص والحب . . ؟ . . ما الذي أوحَى لها أن ترقص الآن وفي هذه المرحلة بالتحديد . . ؟ صحيح أنها كانت ترقص كثيرًا في صغرها ، حتى لأكاد أظن أنها نزلت من بطني راقصةً . . ولكنني أظن أيضًا أن مساحات شاسعة من البون تقع بين المنطقتين . . فما الذي قرَّب بينهما إلى هذا الحد . . ؟ . . ولماذا ينكمش الإحساس بالرقص عندي حتى يتلاشَى . . بينما لا يتوارَى عند الفتيات اللاتي في عمرها ، ولا تخجل أن تؤدِّيَه في أي مكان . . ؟ . حتى المُحَجَّبات ترقصنَ هذه الأيام في الأفراح بلا خجل . . . . !!! هل أفقدُ بالفعل روعة الدخول في غيبوبة الحُلم . . ؟ . ما الذي يوقفني دائمًا على منتصف السلم . . ؟ . كانت أمي تقول لي دائمًا : (أنت عاملهْ زي اللي رقصتْ على السلم . . لا اللي فوق شافوها ولَا اللي تحت نضروها) . . وكنت

أعلم معنى العبارة جيداً . . لكنني لم أفهم معنى أن أتفرَّج على فيلم السهرة حتى المنتصف بالضبط ، ثم أذهب إلى السرير لأفتح الراديو فأستمع إلى منتصف السهرة الإذاعية (من الحياة) . . لم أفهم معنى أن أذهب مع أمي لشراء الاحتياجات المنزلية فأعود بنصف ما اشتريناه من منتصف الطريق وأتركها تستكمل الشراء وحدها . . ولا معنى أن آكل نصف قطعة الشيكولاتة فقط ، حتى كبرتُ شيئًا فشيئًا فكرهتُ الشيكولاتة نهائيًا بسبب حَبّ الشباب الذي بدأ يظهر في وجهي . ثم لم أتمكن من وضع يدي على سبب واحد وجيه يجعلني أترك رسالة الدكتوراه التي كانت شجرةً يانعةً تستوقفني يوميًا وترمي لي ثمارها الحلوة برفق وحنان الأم .

– أنتِ دلُّوعة . . . !!

قالتها أمي بوعي . . فعندما كنت أستحم كنت أرتدي ملابسي الداخلية فقط وهي تكمل لي . . وعندما كنت أصفف شعري كنت (أُسَلّكُهُ) فقط وهي تضفِّره لي . . وفي المصيف لا أنزل البحر مطلقًا ، فقط أضع أطراف قدمي في مياهه . بنات هذه الأيام تفعلنَ كل شيء . . كل شيء . . ما يخطر ببالنا وما لا يخطر به . . المرة الوحيدة التي نزلت فيها إلى البحر كنتُ عائمةً على ظهر أبي بعد أن

فقدتُ طوق النجاة الأبيض الذي كنت أمسكه بيدي كلعبة . . . ثمة محاولات للوجود وإثبات الذات لكنها منقوصة غير كاملة، فيما كنت لا أعرف الفشل في الدراسة والجامعة والعمل بل على العكس تمامًا . .

الشركة التي أسَّسْتُها بعد وفاة أبى وأمي والتي أديرها بحكمة شديدة، ونجاح مشروعاتي يثبت نجاحي وقدرتي على التفوق . . وقوفي أمام جمهور الندوات وتصفيقهم الحاد لي بعد كل قصيدة ألقيها عليهم يثبت قدرتي على اقتناص النجاح والاحتفاظ بحب الناس . . استمراري في الحياة الزوجية كل هذه السنوات مع إجماع الكثيرين على أن الزواج مشروع فاشل يثبت قدرتي على النجاح وقدرتي على عمل نوع من التوازن بين الأشياء . . فما الذي ينقصني إذن . . ؟ . صحيح أن هناك بعض المؤجلات، بل كثير من المؤجلات في حياتي لكنني لديَّ النيَّة والرغبة الكاملة في تحقيق كل آمالي وطموحاتي . .

أنا لا أحتاج سوى بعض الوقت . . وإن كنت بالفعل لا أضيّع وقتي إطلاقًا إلا فيما يفيد: العمل والبيت والكتابة . . لكنني

أحتاج إلى وقت آخر إضافي . . . إيقاع الحياة السريع الذي أتعمد أن أسلكه لا يكفيني .

كانت (مَيّ) تحدِّث نفسها . . تحاول أن تجد مبرراً لشيء ما ناقص في حياتها . . العمل ، الأبناء ، الكتابة . . .

فاجأتها (فريدة) بدعوة لحضور عيد ميلادها . . أحستْ أن نَجْدةً جاءت من السماء لتنقذها من أشباح أفكارها وتأخذها إلى هذا الحفل . . ستترك الأولاد الصغار مع أختهم الكبيرة وتذهب . سوف تخلع نفسها من العمل والبيت والأبناء والكتابة وتخرج إلى الشارع إلى المجتمع إلى الناس . . ستحرر قدميها ليلةً واحدةً فقط . . سترتدي فستانًا مكشوفًا من عند الصدر ، ومفتوحًا فتحةً خلفية طويلة من عند الذيل ، وحذاءً مفتوحًا بكعب عال يزيدها طولاً على طولها ، فهي تحب ذلك كثيراً سوف لا تركب سيارتها ، ستتركها وتذهب سيراً على الأقدام ، أو تستقل تاكسيًا إلى أول الشارع الذي تقطن فيه (فريدة) . وتكمل الطريق إلى بيت (فريدة) سيراً على الأقدام . . ستكون أشيك مَنْ في الحفل . . ستلفت الأنظار أكثر وأكثر بتصرفاتها المتحضِّرة . . تسلِّم على هذا ، وتبتسم لهذا ، وتجيب على سؤال هذا . . وفي آخر الحفل لن تقول

(لأ) لمن يريد أن يقوم بتوصيلها بسيارته أو بدون سيارة إلى بيتها، ولا مانع من أن تتمشَّى معه بعض الوقت وهي تُسْمعُهُ بعضًا من أشعارها في الهواء الطلق.. فالليلة ربيعية هادئة، وهي لديها الاستعداد الكافي لاكتشاف نفسها من جديد.... ستترك نفسها للحياة، للهواء يداعب شَعرَها ويرفع فستانها قليلاً.. لن تأخذ حقيبتها معها.. ستتحرر حتى من حقيبة يدها..

قالت ذلك لفريدة عبر الهاتف بفرحٍ زائد.. في المساء عندما فتحت (فريدة) باب شقتها على أثر جرسٍ طويلٍ جدًا وكأن الطارق قد نام على ذرِّ الجرس نومةً طويلةً. تفاجأتْ (فريدة) بها ترتدي فستانًا مُحتشمًا، وتعلق حقيبتها في كتفها، وقد ضمت شَعرها إلى الخلف على هيئة ذيل حصان وأبناؤها الثلاثة معها وزوجها (محمود) يحمل الهدايا ويقهقه:

- ما رأيك في هذه المفاجأة..؟؟

كان الاحتفال بفريدة يشغل الحاضرين.. أصوات موسيقى وهدايا وزينات وتورتات ورقص وكلام.. وفي منتصف الحفل استأذنتْ (مَيّ) من الحضور ـ بأدبٍ جم ـ لتقف في الشُرفة وتستنشق هواءً خاليًا من دخانِ السجائر الذي يرتسم أمامها

أشباحًا ليس لها معنى، إذْ لا داعي لحضور الأشباح الآن. . . . دخان السجائر يزيد احتقان الأنف واللوزتين لديها. . شيء ليس في وقته إطلاقًا، ، ، نظرتْ في حقيبتها فلم تجد أقراص الأوريفار التي تعودت امتصاصها في مثل هذه الحالات وقاية لالتهابات الحلق. . تنهدت . . وكان من الأفضل أن تخرج من هذا الجو الخانق الذي دوَّخها قليلاً. . .

في الشرفة العالية ترى الأشياء أصغر من حجمها الطبيعي بكثير. صوت الموسيقى والغناء المنبعث من داخل الشقة إلى حيث تقف (مَيّ) يتحول إلى ضجيج ثم إلى أصوات متداخلة غير مفهومة وغير واضحة، تتحول بدورها إلى صوت جرس الكنيسة الذي يبدأ طبيعيًا ثم يختلط بصدى صوت دقات الساعة الرتيب الذي تركته في منزلها والمختلط بصوت دقات قلبها. . . فتشعر بالدوار وبأنها ستسقط من أعلى. . تصرخ. . ترى نفسها وهي تسقط من الشرفة وكل جزء من أجزاء جسمها يتناثر في ناحية. . وجهُها الذي أصبح أقل إشراقًا عن ذي قبل يظل معلقًا بين الأرض والسماء، يُخرج لسانه لها متباهيًا بطوله وقوته. . تصرخ فيه فيجتمع الضيوف حولها مهرولين. . يمسكون بها وقد وضعتْ

رُكبتها اليمنى ـ بالفعل ـ على سور الشرفة في وضع استعداد لإلقاء نفسها في الشارع . . (محمود) يسألها وهو يكاد يبكي :

– لماذا يا (مَيّ) . . ؟

أدهشَتْها الجُملة . . بل أدهشها السؤال غير المتوقع . . كما أدهشتْها معاملته لها بلطف ورقَّة زائدة تجدها منه أحيانًا . . تنظر في عينيه نظرة من رأى شيئًا جَميلاً ومُدهشًا بعد بحث طويل عنه . وهي جالسة في استرخاء شديد على كُرسي هزَّاز . تطيل النظر إلى زوجها والكرسي يأخذ عينيها صعودًا وهبوطًا بخفة شديدة فتراه يقترب ويبتعد كشريط سينمائي يتم عرض مشهدٍ منه بالبطيء البطيء البط ي ي ي يء . . ولا تزال تطيل النظر إلى زوجها ثم تتحول نظرتها شيئًا فشيئًا ـ مع ثبات الكُرسي وثبات المشهد ـ إلى السماء، والنجوم تبتسم لها وهي تتذكَّر أنها منذ فترة بعيدة لم تلعب معهم (الاستغماية) . . تغمض عينيها المملوءتين بوعود كثيرة؛ أولها أنها عندما تعود ـ الليلة تحديدًا ـ ستقف في شرفة شقتها وتنتظرهم ليلعبوا معها، وأنها سوف تطيل النظر في عيون قطتها السِّيامي البيضاء لترى فيهما ما لا تستطيع أن تراه في أي عيونٍ أخرى .

(٩)

في صَحْن المَسْجِد

الشيخ (منصور) بوقاره الزائد وملابسه الرسمية وهيئته المهيبة يتوسط صحن جامع الحسين.. وعلى مرأى ومسمع من المصلين بعد صلاة العشاء مباشرة يجلس (مستر كول) وقد طالت لحيته بعض الشيء واختلف شكْلُهُ.. بين يدي الشيخ يتصبَّب عرقًا.. لا هو عرق خوف.. ولا هو عرق مجهود.. ولا هو بقايا مياه الوضوء.. ولا هو عرق التوتر ولا القلق ولا الخجل.. مُقبلٌ هو على الأمر كمن وجد ضالَّته.. قال الشيخ:

- تطهَّرت كما وصفتُ لك قبل أن تجيء..؟؟

- نعم يا سيدنا.. تطهرتُ وتوضأتُ.

- كيف..؟

- اغتسلتُ غُسْلاً إسلاميًا، بدأتُ بغسل نصف جسدي الأيمن، ثم غسلت النصف الأيسر؛ ثم توضأتُ وضوء الإسلام

بالضبط كما وصفتَ لي بالأمس . . ثم نطقتُ الشهادة بيني وبين الله . .

– نعم يا بُني . . تقبَّلَ الله منك . . قل ورائي إذن : أَشْهَدُ أنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ الله وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ الله .

– أَشْهَدُ أنَّ لا إِلَهَ إِلاَّ الله وأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولَ الله . .

– أَسْتَغْفِرُ الله العَظِيم الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيّ القَيُّومْ .

– أَسْتَغْفِرُ الله العَظِيم الَّذِي لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الحَيّ القَيُّومْ .

يهتز قلبُه ويتذكَّر آية الكُرسي التي طالما حملها في ميداليته المعدنية . . وقرأها، وتمعَّن فيها . . يكاد يستكملها كي يؤكد للشيخ منصور أنه يحفظها عن ظهر قلب :

" لا تَأخُذُهُ سنةٌ ولا نَوْم " فيقاطعه الشيخ وهو يهزُّ يديه اللتين نامتا بين يدي الشَيخ كعصفورين مستسلمَيْن ومُركَّزًا في عينيه الزائغتين :

– تُبْنَا إِلَى الله . . ورَجِعْنَا إِلَى الله . .

فيردد سريعًا :

- تُبْنَا إِلَى الله . . ورَجِعْنَا إِلَى الله . .
- وَعَزَمْنَا عَلَى أَلاَّ نَعُودَ إِلَى مَعْصِيَةٍ أَبَدًا .

يهتزُّ جسمُه ويخفق قلبه ويعلو صوته المرتعش :

- وَعَزَمْنَا عَلَى أَلاَّ نَعُودَ إِلَى مَعْصِيَةٍ أَبَدًا .
- وَبَرِئْنَا مِنْ كُلِّ دِينٍ يُخَالِفُ دِينَ الإِسْلاَمْ .

تزداد نبضاتُه خفقانًا حتى ليبدو صدره يرتفع وينخفض بشكل واضح . ويختنق صوته المبحوح مُردِّدًا :

- وَبَرِئْنَا مِنْ كُلِّ دِينٍ يُخَالِفُ دِينَ الإِسْلاَمْ .
- وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالنَّجَّاةَ مِنَ النَّارْ .
- وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ وَالْمَغْفِرَةَ وَالنَّجَّاةَ مِنَ النَّارْ .

يتصاعد إحساسه بالدعاء ، فينفجر باكيًا ومردِّدًا الدعاء مرة أخرى ، مختلطًا بحشرجة ودموع وزفرات قوية في ذات الوقت :

- وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ وَالمَغْفِرَةَ وَالنَّجَاةَ مِنَ النَّارْ .
- قُل يا فتى . . ما اسمُك الآن . . . ؟

- إبراهيم عبد الرحمن.
- ما شاءَ الله . . . قُم يا إبراهيم لنصلِّيَ معًا ركعتين لله .

كل المصلين شهدوا الموقف، احتضنوه واحداً واحداً مرددّين عبارات التهنئة والدعاء له بالبركة . . بارك الله فيك . . تقبَّل الله منك، بارك الله فيك . . تقبَّل الله منك، بارك الله فيك . . ، فأخذ مكانه بينهم وأُقيمت الصلاة . . . صلُّوا جميعًا ركعتين لله . .

وسط همهمة وهسهسة وتحايا وابتسامات يخرج (إبراهيم) من المسجد ساهمًا . ً يرى الكون والحياة بعيون مختلفة، يشعر وكأنه كان أعمى أسعفه القدر بإبصار مفاجئ . . ولشدّة تأثير الضوء فهو يغمض عينيه ويفتحها عدة مرات، ويرمش كثيراً واضعًا يده عليهما محاولاً تلمُّس الطريق ورؤية موضع قدميه . . الآن فقط أدرك سرَّ احتفاظه بنسخة من المصحف الشريف كل هذه السنوات . . الآن فقط أدرك سرَّ آية الكُرسي التي لا تفارقه إطلاقًا . . الآية والمصحف اللذان أصرَّ على أخذهما من صديق له من أبناء الجالية المصرية بألمانيا .

أسبوع كامل لم يخرج مستر كول (إبراهيم) من شقته متفرِّغًا لقراءة القرآن الكريم، يتأمل كلمة (كريم) على غلاف المصحف،

ويدرك معناها مؤكداً لنفسه أن ما هو فيه الآن كرمٌ كبير من عند الله . . بعد إتمام قراءة القرآن الكريم اغتسل مرة أخرى وتوضأ، ونطق بالشهادتين وكأنه يؤكد إسلامه . . بعد أسبوع آخر كان صديقه الألماني في نفس القسم بالجامعة الأمريكية ملتحياً، ويقتني آية الكُرسي مبرزاً إياها في ميدالية مفاتيحه . .

الليلة شتاء قارس، ورذاذ المطر فوق النوافذ يرسم خارطةً عشوائية . . (إبراهيم عبد الرحمن) خلف زجاج النافذة في حجرته المتواضعة، تلفُّهُ وحدة قاتلة وشعور بالفقد يشبه فقدان الأب والأم والابن معًا . . وحْدهُ بالفعل، يتأمل المكتب والأريكة والضوء الخافت الصادر من أبجورة قديمة وكأنه ضوء مسلَّط على فوَّهة مقبرة. يتأمل دولابه، سريره، يحاول أن يجد مبرّراً لوحدته، يتحسَّس قلبه، يحاول إسكات صوت الألم الصادر منه، يتمنَّى أن يعيش ليلة واحدة أخرى كي تعرف (رشا) و(مَيّ) بأنه قد أسْلَم، يتردد في هذا القرار . . لا لن أخبرهما . . لأنني لم أُسلم من أجلها فقط . . بداخلي شيء ما يربطني بهذه الديانة من قبلَ أن أعرف (رشا) . . أنا مسلم أصلاً . . ينظر إلى كتاب الله وقد وُضِعَ في وقار

وشموخ فوق المكتب، يُسْرع إليه، يفتحه، يقرأ فيه.. أحسَّ براحةٍ كبيرةٍ وهدوءٍ عظيم..

لم يعد يشعر بآلام القلب التي كانت تفاجئُه، ولا بآلام الوحدة والفقد الموحشَة، أغلق الكتاب واستدار متجهًا نحو سريره، وأسلم جسده لنومٍ عميقٍ وهادئ.

اطمأنتْ نفسه الآن.. رأى راهبةً يعرفها جيدًا.. كانت تصطحبه دائمًا عند لقائه بفتاته وحبيبته (رشا) في الدَّير الشهير الذي شهد قصتهما... الراهبة التي ضمّتْ (رشا) إلى صدرها ذات مرة وكرَّرت ذلك كلما رأتها.. كانت تتعمد أن تخرج إليهما عند البوابة الرئيسية رغم وجود الحارس، وترحِّب بهما، وتصطحبهما في جولة سريعة في أنحاء الدير، لا تتركهما وحدهما عامدةً متعمِّدة.. لم يُشغل باله كثيرًا بتصرفات الراهبة، لمْ يُشغل باله أيضًا بمعرفة اسمها...

يراها الآن تسير في وسط الدير سير مَنْ يبحث عن شيء ضاع منه.. تحملق بعينيها المدوَّرتين في كل مكان.. تصعد سُلَّمًا داخليًا يتوسط البهو الواسع.. خطواتها لها إيقاع ورنين يثيران الخوف في قلبه، يزداد صوت وقع قدميها ورنينهما كلما صعدت السلم

مصوِّبةً عيونها نحو جرس كبير معلَّق في أعلى القُبة. . . الجرس يدق ويدق. تختلط أصوات قرع الجرس الكنائسية المنتظمة بصوت قدميْها بصوت أنفاسها المتقطعة بصوت المؤذن يعلو بالنداء: " اللهُ أَكْبَرُ اللهُ أَكْبَرْ " ، بصوت (رشا) وصوت أمها، بصوت الشيخ منصور. . الراهبة تنزل السلم فزعًا وكأن وحشًا يطاردها من أعلَى، تصطدم بإبراهيم عبد الرحمن ممسكًا بشيء في يمينه، لم تستطع تحديد ملامحه، لكنه يحرص عليه، تتعالَى الأصوات وترتفع فيعلو صوت الآذان: " اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرُ، اللهُ أَكْبَرْ، الصلاةُ خَيْرٌ مِنَ النَّومْ. . " . شكل الراهبة يكبر ويكبر ويتسع حتى كأنه يملأ شاشة سينما، وقد ركَّز المخرج بالكاميرا على وجهها الممتعض المليء بالتساؤلات والاندهاشات الكثيرة، تنادي على (إبراهيم)، فلا يسمع صوتها المختنق لكنه يستطيع أن يقرأ شفتيها، وحركة يدها التي تحمل المصباح الزجاجي ذا الضوء الضعيف جدًا، والذي لا يكاد يُبْرِزُ من المشهد كله سوى عينيْها وشفتيْها وبروفيل وجهها الممتعض الخائف. . تتعالَى الأصوات، وتتصاعد، ثم تخمد جميعًا مرة واحدة، ليعلو صوت واحد هو صوت المؤذن: " اللهُ أَكْبَرُ. . اللهُ أَكْبَرْ. . قَدْ قَامَتْ الصلاةُ. . قَدْ قَامَتْ الصلاةْ. " و(رشا) أمامه

ممسكة بيد أمها وكلما تلاشى وجهُها علا صوت المؤذن وارتفع : اللهُ أكْبَرُ . . اللهُ أكْبَرُ . قَدْ قَامَتْ الصلاةُ . . قَدْ قَامَتْ الصلاةْ . " .

يفرك (إبراهيم) عينيْه محاولاً رؤية شيء ومدققًا النظر في المشهد ليكتشف أنه كان يحلم فيستغفر الله ، ويفرك عينيْه متثائبًا ومستغفرًا الله مرة أخرى . . ينهض من مضجعه ليتوضأ ويصلِّي الفجر حاضرًا . . .

لا يدري لماذا تأتيه عيون القطة السِّيامي البيضاء الموجودة في منزل (مَيّ) و(رشا) ، تلاحقه نظراتها في كل مكان ، وفي كل وقت ، وخصوصًا في أوقات الصلاة على السجادة . سجادة الصلاة ، في نفس الوضع الذي يراها عليه دائمًا هناك . . . . . ! !

* * * *

(١٠)

الأماكِنُ الّتِي

كان الشرخ الكبير والعميق بداخلها يكبر ويزداد طولاً وعمقًا كل يوم، فمعظم الذين قابلتهم في حياتها عبَّروا لها عن إعجابهم بجسدها قبل أن يلتفتوا إلى عقلها ومشاعرها الفياضة نحو الأشياء والبشر . . . حتَّى الذين لم يصرّحوا لها بذلك كانت تلاحظ رأيهم خلف النظرات، حتى الضرير الذي كانت تقرأ له بمكتبة الكلية كان يسميها الغزال . . كانت خطواتها الرشيقة تجعل طوب الأرض يغازلها وملامحها الرقيقة والدم الذي ينطُّ من وجنتيْها يجعل خدَّيها ثمرتَىّ تفاحٍ ناضجتيْن نسيهما صاحب الحديقة وقت القطاف؛ فنزلتا بنفْسيهِما معًا تبحثان عن آكلهما . . . .

كانت تعرف ماذا ترتدي ومتى . . في الصباح هي امرأة عملية جدًا، ترتدي البنطلون الجينز والقميص الكاروهات والكوتشي أو ما يشبه ذلك . وفي المساء ترتدي الجيبات والبلوزات أو الفساتين الطويلة التي تبرز مفاتنها معجبةً بنفسها أيَّما إعجاب . وفي الوقت نفسه تكره أن يغازلها أحدٌ . تتضجَّر وتغضب لكثرة ما صرّحوا لها

بذلك لدرجة أنها فكَّرت في ارتداء الحجاب أكثر من مرة، اشترت الإيشاربات وأغطية الرأس الطويلة والفساتين الواسعة، لكنها أبداً لم ترتدِ ما يوحي بالحجاب مُطلقًا..

إذا ارتدتْ الفستان الطويل فإنها تطلق لشَعْرِها القصير العنان كيْ يداعبه الهواء كما يشاء، وتضع ماكياجًا بسيطًا رقيقًا يزيدها جمالاً وتألقًا.. وإذا ارتدتْ الإيشارب على رأسها فلأسباب نفسية ترتبط بشهر رمضان والصيام والذهاب إلى المساجد، عند قيامها بزيارات عائلية للمشايخ والأولياء الصالحين أو لصلاة العيد في مسجد د. مصطفى محمود بالمهندسين تحاول (مَيّ) أن تُقنع نفسها بأنها إنسانة عاديّة، معتدلة، لا شيء فيها يُغري أحدًا... وخاصة في الاجتماعات والمؤتمرات حين تبدو ذات رأي خاص ورؤية خاصة عن كل الحضور..

وعندما تقف أمام المرآة لا تنظر إلى مفاتنها، لا يلفت انتباهها إذا كانت قد سَمُنَتْ بعض الشيء أم نَحفَتْ بعض الشيء.. فهي لا تزال ترتدي جميع ملابسها حتى الضيقة منها دون إعاقة.. لذلك فهي مطمئنة دائمًا من هذه الناحية...

في الحفلات لا تتعمد أنْ تظهر ساقها من فتحة الفستان السُّواريهْ الأمامية إذا ما وضعتْها على الساق الأخرى. وبخجلٍ غير مصطنع تنزل ساقها إلى جوار الأخرى فتنغلق الفتحة تلقائيًا، وقد تضع حقيبتها (البورتفيهْ) الصغيرة عليها زيادة في الاحتياط. . .

مع الأصدقاء الجُدُد والغرباء متحفِّظة جداً ولأقصَى حد. . مع الأصدقاء القدامَى الذين تطمئن إليهم هي أكثر من الأم الحنون وأكثر من الأخت المعطاء. . . لا يمنع ذلك من وجود من يفهمها خطأ. . لكنها تتدارك الأمر بسرعة فتقطع العلاقات المحفوفة بخطر. . .

دائمًا هي مشغولة بشركتها ومستقبل الشركة التي ورثتْ رأسمالها البسيط جداً عن أمها وأبيها. مشغولة بأبنائها الثلاثة، تحاول أن تضمن لهم المستقبل، فمحمود زوجها لا يهمُّه ذلك ولا يهمّه شيء آخر على الإطلاق. في شقة (محمود) الخاصة وفي فترة الخطوبة تحديداً رفضتْ أن يُقبِّلها لأن ذلك حرام. .

وبعد عقد القران ـ وفي شقته أيضًا ـ رفضتْ كل محاولات التحرش بها. . وعندما طلب منها بصوت هامس أن تناوله المنشفة بعد حمَّام دافئ مثير، أعطتها له من خلف الباب، جاعلة مسافة

ذراعها كله بينهما، وناظرة عكس اتجاه عيونه التي تلصَّصتْ على شَعرها ورقبتها وكتفها وذراعها بنظرات بطيئة متتابعة حتى وقعتْ يده على (الفوطة) بين أصابعها النحيفة المرتعشة خوفًا من لمسها..

لمّا خرج من الحمام مرتديًا قطعة واحدة من ملابسه محاولاً تقبيلها وضمها إليه دفعتْه عنها بكل قوتها؛ فوقع على الأرض مهزومًا أمامها. لمْ ترحمْ أشواقه وعاطفته الجياشة التي استطاع كَبْتها أشهرًا طويلة غاب فيها عن القاهرة وعنها لعمله بالخارج.. لمْ تقتنع بأحاديثه الناعمة التي تُحَلِّلُ خلوتَهما بعد قيام المأذون والشهود بكل مراسم عقد القران..

كانت حكايا أمها عن العرض والشرف ناقوسًا ذا صوت أقوى من صوت ناقوس الكنيسة المجاورة لهم، في الحي الشعبي حيث كانوا يُقيمون بالقاهرة..

كانت (مَيّ) ترتعش فزعًا كلما تذكَّرتْ البنت المسيحية التي وجدوها خلف الكنيسة مقطَّعةً أجزاءً صغيرة واللبن ينزُّ من ثدييها، والتي شوَّهوا ملامح وجهها تمامًا كي لا يتعرَّف أحدٌ عليها، ثم اكتشف أهل الحي بعد ذلك أنها ابنة القسيس الذي ادَّعَى أن ابنته الكبرى (مادلين) سافرتْ إلى ألمانيا لاستكمال

دراستها . . وقبل مُضيِّ أسبوع واحد انتقل القسيس وأسرته كلـها إلى الصعيد من حيث جاءوا .

قالت أمي أنه ما فعل ذلك إلا ذئبٌ بشريٌّ يستحق أن يُعلَّق من شعر رأسه في ميدان التحرير ويموت رميًا بالرصاص . . ولم تقل أن (مادلين) لا تستحق تمزيقها فقط ، بل تستحق أن تأكلها الكـلاب ، لأنها لم تحافظ علـى نفسـها . . كانـت أمـي مشـغولة بالفاعـل لا المفعول به .

كانت (مَيّ) تـرتعش فزعًـا أيضًـا عنـدما تتـذكّر البنـت الـتي وجدوها في (الخَرابة) خلف المساكن الشعبية في جوال بدون رأس ، مجردة من ملابسها ، والـتي لم تُعـرف ديانتهـا ، ولَم يُسـتدل علـى شخصيتها وبجوارها طفلها البريء يتلمَّس الهـواء بيديـه ، وباحثًـا عن ثديها بفمه . حركة يده المرتعشة يمينًا ويسـارًا وهـو يضـم كفَّـه البيضاء رافعًا سبّابته فقط كأنما هي حركة مقصودة ترسم حرف الـ (لا) . . . لا . . . لا . . .

قالت جارتُنا الحشريّة جدًا أنها رأتْ الطفل يرضع بالفعل مـن ثديها لبنًا مختلطًا بالدَماء . . فيما قالـتْ جارتنـا الأخـرى : منُّـه لله الذي فعل ذلك بها . . أين سيذهب من ربنا . . إلى النـار حتمًـا إن

شاء الله . . وأضافت بائعة الزبد : (جِسْمَهَا كانْ أبيضْ زَيِّ اللبن الحليبْ . . بنت إنَّما إيه حتِّةْ قشطةْ بصَحيحْ .)

قالت أمي : (ابن الصَّرْمَةْ . . آهْ لَو اطُولُهْ . . ! !)

حتى أبى عندما أخبرنا عن حادث فتاة المعادي الشهير المنشور في الجرائد كان مشغولاً أيضًا بالفاعل المغتصب بل المغتصبين الثلاثة . . فصوَّرهم بالوحوش المفترسة . وقال إنهم يستحقون أن تُنَفَّذَ فيهم كل وسائل الإعدام على اختلاف أشكالها وأساليبها شنْقًا وخَنْقًا وحَرْقًا وصعْقًا ورميًا بالرصاص، وأن يُعذَّبوا بكل طرق التعذيب الممكنة وغير الممكنة قبل وبعد الموت . . فهم ليسوا بشرًا على الإطلاق ولا ينتمون لنسل بني آدم : (دُولْ كِلابْ . . أنْدالْ) . .

قال أحد المارّة لصديقه : بيادَاتْ . . وكان يرتدي الزِّيَّ العسكريَّ والبيادة، وصديقه كذلك . . وهكذا قال الفأل .

التقط الكلمة الرجل العبيط المارّ بجوارهما وظل يردِّدها : بيادَاتْ . . . بيادَاتْ . . . بيادَاتْ . . . وارتبطتْ الكلمة في ذهني أنا بالمغتصبيْن الثلاثة منذ ذلك الوقت . . خاصة وأنّ العبيط قام

بتحفيظ الكلمة لكل أطفال الشارع فصاروا يقولونها بمناسبة وبدون مناسبة.

ولا يزال شريط الماضي المُرّ يمر أمام عينيْها. تتذكر أيضًا فترةً ازدادت فيها متابعتها لصفحات الحوادث، تؤلمها أخبار الذئاب البشرية (البيادَاتْ) التي تعتدي على البنات وعلى الفتيات والأطفال البريئات، حيث لا حُب.. ولا جسد مغرٍ، ولا شيء مثير سوى الغريزة الحمقاء وحدها...

عند متابعتها لحادث فتاة العتبة الشهير ختمتْ بأصابعها العَشَرَةً أن كل الرجال ذئاب. وأنهم بالفعل بيادَاتْ... (صُرَمْ). لأنهم في لحظة غباء حقيقية يجعلوننا نشعر بأَن كل الثوابت قد انهارتْ، وأن كل القيم والمبادئ قد سقطتْ في بئر عميقة ليس لها قرار.. و(مَيّ) لا تتقن المجاملات، تتحيَّن الفُرص لتصبَّ جامَّ لعناتها على الرجال، وتبصُق عليهم جميعًا، وبخاصة أمام المشاهد التليفزيونية في الأفلام العربية والأجنبية، التي يتحول البطل فيها إلى ذئب كما حدث في فيلم (دراكولا).....

أثناء مشاهدة هذا الفيلم كادتْ (مَيّ) أن تتقيَّأ كلما امتصَّ البطل دماء الضحية من عند الرقبة تحديدًا.. شعرتْ بغثيان،

وعدم القدرة على تمالك نفسها عن البكاء. ذهبت إلى الحَمَّام؛ لكنها لم تتقيّأ. فقط تجشَّأتْ وحاولتْ دون جدوى، سعلتْ وبصقتْ ألف مرة.. سألها طفلُها الصغير: ماذا بك يا أمي.. فلم تجبْ.. حملَتْه بين ذراعيها واحتمتْ به، وأسرعتْ إلى حجرته وكأنها تهرب من (دراكولا) نفسه وكأنه خرج من الشاشة ليطاردها بين حجرة النوم والممر المظلم المؤدِّي إلى الحمّام... لمْ تكمل مشاهدة الفيلم.. أخذتْ ابنها في حضنها ونامتْ.....

في الحلم جاءها (دراكولا) قاصدًا رقبتها تحديدًا.. عندما استيقظت من نومها صباحًا لم تدر إذا كانت أسلمتْ نفسها له ليمتص دماءها أم لا..؟!..

كان ذلك كافيًا لأن تبصق في الحوض ألف مرة أخرى. كما فعلتْ مساءً. وهي تغسل وجهها الذي بدا مُصْفرًّا ـ تمامًا ـ مثل بطلة الفيلم، وغائمًا ـ تمامًا ـ كسماء الشتاء القارس..

زيادة في الاحتياط فتحت فمها على مصراعيه، ونظرت في المرآة إلى فكَّيْها، لم تبرزْ فيهما أنيابٌ طويلة.. اطمأنَّتْ وأكملتْ طقوسها اليومية.. وشغلتْ نفسها بالأبناء.. بعد دقائق معدودة نادت:

- الفطور جاهز يا أولاد. . . . . !!

* * * *

obeikandl.com

(١١)

مُؤقتـًا

قبل موعد مستر كـول أو (إبـراهيم) قالـت (مَـيّ) لابنتهـا أن تحدِّثه تليفونيًا لكي يأتي قبل موعده بساعة علـى الأقـل . . . فيمـا كانت تلقي نظرة على خطـة العمـل القادمـة الـتي أحضـرتها لهـا (فريدة) توًّا، لتُبدي ملاحظاتها وتعطيها إشارة البـدء في تنفيـذها، فكل شيء جاهز، فقط ستقوم (مَيّ) بالتوقيع على الخطة إذا أبدتْ موافقتها . . .

لكن الذي حدث أنها ناقشتها كثيراً . . وغـيرت بنـود الخطـة كثيراً . . حتى أن فريدة شعرت أن بناءً جديداً تم إنشاءُه الآن . . . لكنها لم تعـترضْ . . فــ مـي في النهايـة هـي صـاحبة الشـركة . . والرأي الأخير لها . لا بأس . . .

(فريدة) تلملم الأوراق في ملفاتها بعد أن شربتْ الشاي الـذي تحبه حلواً جداً بعكس (مَيّ)، وترحل سائلة (مَيّ) وهي تضحك :

– أعجبتك الخطة . . ؟

- نعم . . بعد التعديلات طبعًا . . لكي تعرفي إلى أي مدًى كان عندي حق حين صممتُ على أن تحصلي على بكالوريوس التجارة يا ست الهوانم . .

- شكرًا لك . . أنت صاحبة أيادٍ بيضاء كثيرة علىَّ ولكن . . . . .

تضيف وهي تقترب من باب الشقة رجاءً بأن تكون (مَيّ) ذات أيادٍ بيضاء على (إبراهيم) الذي تتعمد أن تذكر اسمه السابق دائمًا ثم تعود قائلة : (أقصد إبراهيم)، معلّلة رجاءها بأنه شاب لطيف ومقتدر ومتفتح وجنتلْ ولا يستحق إلا كل خير . . وطالما أنه يحب (رشا) فقد انتهى الأمر . . وها قد أسْلَمَ فما المانع من زواجهما . . الحي كله ليس له حديث سوى عن إعلان (مستر كول) لإسلامه . . صحيح أنها كانت مفاجأة، لكنها مفاجأة سارة أليس كذلك . . ؟؟ هزّت (مَيّ) رأسها كعلامة استفهام . . وفتحت الباب وودَّعتها دون إجابة . . ! !

هذه المرة لم يتوقفْ مستر كول كعادته أمام آية الكُرسي المعلقة في مواجهة باب الشقة من الداخل . . ولم يقل السَّلامُ عَلَيْكُمْ كالعادة . . كان وجهُهُ مُصْفرًّا متجهِّمًا، وعيونه زائغة، كان شارد

الذهن مبهوتًا متوترًا بعض الشيء عندما فاجأته (مَيّ) بأسلوب حازم جدًا:

- ما الحكاية يا (مستر كول).. أقصد يا (أستاذ إبراهيم)..؟... أليس كذلك.. إبراهيم.. ها!!

أجابها بصوت متلجلج ومرتبك:

- بالطبع كنت أستعد للتحدث معكم في الموضوع الذي تقصدينه... لكنني فضَّلتُ تأجيل ذلك لما بعد الامتحانات.

- كُنْ عمليًا.. أنا فكرتي عن الألماني غير ذلك.. على أي شيء أنت ناوٍ...

- أتزوجها طبعًا.. إذا لم يكنْ لديكم مانع..

- نعم لدينا موانع..

- أعلم جيدًا أنني.....

- ليس ما يدور بذهنك يا مستر.

- لقد أعلنتُ إسلامي..!!

- ولا هـذه . . هنـاك أسـباب أخـرى . . الدراسـة الامتحانات . . النتيجة . . المجموع . . كل ذلك .

- تأكـدي أنـني لـن أؤثـر بالسَّـلب علـى كـل هـذه الأشياء . . لأنها جميعًا تهمني مثلكم تمامًا .

- عمومًا سأفكر في الموضوع وسوف أحاول التأثير على والدها .

- معنى هذا أنَّ حضرتك موافقة . .

- ليس بالضبط . . ولكن مبدئيًا أنت تحت الاختبار . .

(مَيّ) متعمـدةً أرادتْ أن تخـدِّر أعصـابهما . . تُبـدي الموافقـة الظاهرية، لكنَّ الصراع العنيف يضـطرم بداخلـها، يأكلـها شـيئًا فشيئًا مؤكدًا خوفها وقلقها . . لهذا فهي تؤجـل الـرأي الحاسـم في الموضوع . . تعطي نفسها وتعطيهم فرصة أكـبر للـتفكير . . دائمًـا هي تفعل ذلك، لم تتخذ قراراً سريعًا مطلقًا . . حتى لو أخذته . . لا تنفذه بسرعة . . دائمًا هناك فرصة أخرى للتفكير . . الكـثيرون يعتبرونها مراوغة . . . لكنها تعتبرها (مؤجلات)

في حجرة الجلوس (رشا) تنتظر متوترةً هي الأخرى . . يُقبل الأستاذ عليها، فتبادره بالسؤال وكأن روحها معلَّقة على الإجابة :

– قُل لي . . ما الأخبار . . هل سنكمل الدرس . . ؟ ماذا قالت أمي . . ؟

– كل شيء تمام . . سأحكي لكِ فيما بعد . .

– لا أستطيع الصَّبر لما بعد . . قُل لي . . الآنَ الآن .

– والدتك يبدو أنها موافقة مبدئيًا . . قالت أنها ستضعني تحت الاختبار . . وبالتأكيد سوف أنجح .

– نعم . . . نعم .

– وأنتِ أيضًا لابد من النجاح والتفوق . .

– طبعًا طبعًا . . أعدُكَ . . سأنجح وأتفوق طالما أنت معي . .

(رشا) تطلق لفرحتها العنان فتُقَبِّلهُ قبلةً سريعة في جبينه . تطير إلى المطبخ لتقوم بعمل مشروب دافئ للأستاذ وبنفسها . . . تدركها (مَيّ) . . وفي خُبث الأمهات تسألها : لماذا خرجتِ من الدرس . . ؟ وتأمرها بالعودة . وتخبرها بألا تنشغل سوى بالمذاكرة . . تلاحظ

obeikandl.com

فرحتها . . تتمنَّى لو أن الأرض تنشقُّ وتبلعها قبل أن ترى دمعةً واحدةً في عيون ابنتها . . تضغط بأسنانها على شفتها السُفلَى، وتهزّ رأسها رافعةً حاجبيْها في تعجبٍ واستغراب . . .

في المساء تقف (مَيّ) في الشرفة . . . لا تنظر إلى البواخر النيلية والكازينوهات السياحية . . ولا تستوقفها الأضواء السَّكْرَى فيها . . ولا المشَّائين على الكورنيش فُرادى وجماعات يستمتعون بنسائم النيل ليلاً . . وإنما تنظر إلى النجوم كعادتها . . لكنها في هذه المرة لا تختبئ منها . . النجوم تشاكسها وهي غارقة في بحر التفكير . . تتنقل بين شاطئيْه جيئة وذهابًا . . . تتمنَّى أنْ تأتيها نجدة من السماء، تنقذها، وتنقذ ابنتها من آكلي لحوم البشر . . حلَّقتْ طائرةٌ فابتسمتْ قائلة لمن فيها مشيرةً بيدها كمن وجد ضالته :

– نعم . نعم . . أنا هنا . . تعالوا خذوني . . أنا هنا .

اطمأن قلبُها إلى حد ما . . ولكن سرعان ما اختفت الطائرة فأنزلتْ يدها . ولا تزال الابتسامة العرجاء تمر على شفتيْها بحذرٍ شديد .

أيقظها دخان السيجارة التي يشعلها زوجها بجوارها وقد فاجأها :

- أتكلمين نفسك يا (مَيّ) . . ؟! هل جُننتِ . . ؟!

- أبدًا يا محمود . . أنا أفكر بصوتٍ عالٍ .

- وفيم تفكرين . . ؟

- في (رشا) . . البنت كبرَتْ وأصبحتْ عروسًا . .

- أعلم هذا . . وتحب المدرس . . مدرس الألماني . .

تندهش (مَيّ) لبرهة . . لكنها تعود لهدوئها . فهو ذكيٌ وليس غبيًا كما تعتقد . . تسأله في يقظة تامَّة لتؤكد شيئًا ما يدور بداخلها :

- كيف عرفت . . ؟!

- رشا حكتْ لي . . ابنتي حبيبتي لا تخبِّئ شيئًا عنِّي .

لم يكن ذكاءً إذن . . لكنها نظرية فرويد التي تُلْجئ البنت إلى أبيها في هذه المرحلة من العمر بالتحديد . . . يبدو أنها استطاعت أن تكسبَهُ في صفِّها . يباغتها بلمس يدها . . تحسُّ باللمسة وكأنها وخز إبرة . . أو لدغة عقرب، ارتجفتْ، هربتْ من وقع اللمسة بعنف مُسبق النيَّة . . وفي حدَّة سألته : وكيف استقبلْتَ ذلك . . . قال : عادي جدًا . . إنها أُنثى، ويكرر : أُنثَى . . أُنثى ولها

رغبات . . أتفهمين . . . رغبـاااتْ . . ؟! ألا تريـدين الاعـتراف بهذا أبدًا . ؟ أحسَّتْ أن دلوَ ماء مُثلَّج قد صُبَّ فوق رأسها، لكنهـا أخفتْ هذا الإحساس وصمدتْ، وفـورًا لاحقتْـهُ بالسـؤال الـذي أجاب عنه بلا مبالاة لإرغامها على السكوت :

- ماذا تقصد . . ؟

- لا شيء . . لا شيء . . !!

أزاحتْ ستارة الشـرفة ودخلـت الحجـرة . فوجئـت بالسـرير أمامها، أحستْ وكأنها تدخل مقبرة جديدة، ولأول مـرة تسـلقت السرير بإرادتها . . استلقَى (محمود) بجوارها . . الحياة متوقفة تمامًـا إلا مـن أنفاسـها المتقطعـة . . الإضـاءة الملونـة الخافتـة، وظلالهـا المتعددة على جدران الحجرة، تصنع جـوًا رومانسـيًا إلى حـد مـا، يشعرها بأنها داخل كهف، أو داخل مكان واسع محدد بجدرانٍ، قد يكون نفقًا تحت المـاء كالـذي شـاهدته في فـيلم الهـروب الكـبير، ووحـدها تسـير فيـه سـير المجاهـدين الأشـقياء، متعبـة، منهكـة القوى . . لكنها تسير . . وَقْعُ أقدامها يرنُّ رنينًا خفيفًا يصل صـداه إلى حَدِّ العواء المختلط بـالأنين، الـذي يشـبه أنـين وعـواء قطتهـا السِّيامي تمامًا . . قطتها التي تبدو هذه المرة قوية وصامدة وصـلبة؛

تتحدَّى معها موجة عاتية آتية من البحر، لتهجم عليها فتمسك بقطتها إمساك الغريق بقشة عائمة، وتبحثان معًا عن مخرج. . تستطيعان الإفلات من الموجة العاتية بعد عناء شديد، ليس معهما أي أدوات للدفاع عن النفس، وهما معًا لا تجدان قشة النجاة. . تحاولان الهروب فقط، تجريان إلى الخلف جري المتسلسل من أقدامه بسلاسل حديدية. تصلان بالفعل إلى الخارج، خارج النفق، تأخذان جانبًا وبسرعة لا متناهية تتدفق مياه الموجة إلى صحراء قاحلة، تتركانها وتسيران ببطء المُنهكَيْن تمامًا. . يتصادف وجود نهير صغير هادئ خال من الأمواج، تسرع القطة إليه، تمدُّ طرف لسانها إلى المياه، تلعق مرات ومرات فيما تميل (مَيّ) إلى مياه الجدول. ولشدة صفائه ترى وجهَها فيه. وبحنان شديد وشوق لم تعهده من قبل تمد كفَّيْها معًا، تغترف بهما معًا مياهً عذبة. . ترفع كفَّيْها بسرعة المتلهف، وبشفتيْها المُتشقِّقَتَيْن تروي عطشها، وكأنها بدويّة طاعنة في التصحُّر، لكن خبرتها بالصحراء خانتها، فظلت أعوامًا كاملة بدون مياه. . صوت المياه يترقرق في رشفتها الأولى، ويزلزلها في رشفتها الثانية، وهي تغمض عينيْها، والمياه تتسرَّب من بين أصابعها وتتساقط فوق ذقنها ورقبتها وصدرها. . تُصدرُ تنهيدة الرِّي. وتُنزلُ كفَّيْها من فوق شفتيْها، ماسحةً رقبتها

وصدرها ببقايا الرشفة الثالثة، تُبلل ملابسها متعمدة، قاصدة، لتؤكد لنفسها أنها لا تحلُم . . تصحو على صوت جرس الهاتف :

- صباح الخير . .
- صباح الهنا . .
- وحشتيني . .
- لكنك لم توحشني . .
- هكذا . . ؟
- لأنك كنت معي . . طوال . . الليل . .

* * *

obeikandl.com

(١٢)

مُراهَقة

كثيراً ما تصلها دعوات لحضور مؤتمرات مهرجانات ولقاءات أدبية وفكرية . . في صباح هذا اليوم الشتوي وصلتها الدعوة في نفس يوم الأمسية . . ومع ذلك قررتْ أن تذهب . . في المساء وفي طريق يكاد لا يبين من كثرة أشجاره المورقة الكثيفة الأغصان، رصيفُه ملوَّن حديثًا أبيض في أسود . . هذا الطريق الهادئ، النظيف، الذي صُنِعَتْ نسائمه خصيصًا من أجلها، تمشَّتْ (مَيّ الشوربجي) حتى وصلتْ إلى مقر اتحاد الكتاب لحضور الأمسية التي كانت بمناسبة مرور خمسين عامًا على احتلال فلسطين، حضرها نخبة من الكُتَّاب والمؤرخين والإعلاميين.

تفرَّسَتْ في وجوههم جميعًا، لمْ يلاحظوا أو لاحظوا ـ لا تدري ـ أنها تبحث عن أحد بعينه. اصطدمت عيناها بعيون كل مَنْ قاومتْهم، ومَنْ أشهرتْ أسلحتَها في وجوههم دفاعًا عن نفسها، وكل مَنْ راودوها عن نفسها ورفضتْ، وكل من أشاروا لها من بعيد وصدَّتْ تلميحاتهم، وكل من حرمتهم فرحة اللقاء

بها أو التحدث معها، متشفِّيةً فيهم جميعًا. . كلهم كانوا موجودين هناك. . . شعرتْ بفخر المنتصرين، وسعادة الساديِّين، حيث راق لها أن تراهم جميعًا في قفص واحد تتمنَّى لو تغلقه الآن عليهم، وتأتي ببترول الخليج كله وتُشْعِل فيهم. . إذ يليق بهم هذا المسرح الذي يبدو كبدروم لا يصلح لسكن البيه البواب وزوجته في العمارة الشاهقة التي تقطن فيها. . بدروم متواضع جدَّدوه تجديداً متواضعًا لا يُغني ولا يُسمن من جوع. . قالت: بدروم متواضع فعلاً يليق بأدباء متواضعين. . فقد كانوا هناك موجودين. . كل المنافقين والمنافقات والساقطين والساقطات والمدخنين والمدخنات، باستثناء بعض الشرفاء الذين يمكن أن يُعدُّوا على أصابع اليدين على الأكثر. . يرتدون أقنعةً ملونَّة، كلٌ له قناعُهُ الخاص، ولونُهُ الخاص، يتغامزون ويتهامسون يحكون لبعضهم حكاياهم الصادقة أو الكاذبة، وتجاربهم الناجحة أو الفاشلة، ولا مانع من صُنع حكايا وروايات وهمية مشوّشة أو غير حقيقية عن علاقات جنسية ليس لها وجود، يشبعون بها رغبات وقتيَّة أو ينتقمون لأنفسهم إثر هزائم مفضوحة، يتحايلون على واقعٍ عربي مؤلم ومرير. وينتهزون الفُرص التافهة ليهنئوا أنفسهم، يعرفون حقيقتهم جيداً، ومع ذلك اجتمعوا الآن من أجل دفاعٍ زائف عن القضية، وحتى

المعتدلون منهم لم يكونوا جادِّين في كل الأحوال، في محاولة لاسترجاع الأرض السليبة. الفلسطينيون أنفسهم ـ على كثرتهم في مصر ـ لم يأتِ منهم في هذا اليوم إلا القليل ممن لا حول لهم ولا قوة..

التقطتْ أحد الأعلام الفلسطينية الورقية الملونة بألوان زاهية من فوق منضدة بجوار القاعة.. تفحصتها جيداً.. تعجبتْ.. ثم قامت بالتوقيع على منشور مرفوع لجامعة الدول العربية يستهدف طرد السفير الإسرائيلي من مصر.. وقد امتلأ المنشور بالتوقيعات.. حاولت قراءة التوقيعات بسرعة لتعرف من هم بالضبط أصحابها.. استنكرت بعضها بحاجبيها.. ويزم شفتيها.. فعلت كل ذلك بآلية شديدة.. دون أن تلفظ بكلمة واحدة. ز وهي تفكر فيهم ثم قالت في نفسها: أهؤلاء هم الوطنيون.. ؟ سبحان الله..!!!!

انفجرتْ رأس (مَيّ الشوربجي) من التفكير والأسئلة الحمقاء.. تلك التي اشتعلتْ في دماغها بمجرد رؤية سحَنهم القديمة التي تأملتْها جيداً من قبل، والتي تحوَّلتْ شيئًا فشيئًا أمام عينيْها إلى وجوه ضخمة مفلطحة تشبه وجوه الأسود، أُسُودٌ

تدوس كل شيء فتفعصهُ فعْصًا بطيئًا حتى الموت . . تخيلتْ وجودها بجواره . . وضعت يمناها على يسراه بخفَّة ففهم معنى اللمسَة . . خرجت، فخرج وراءها، وعند أول منحنى في شوارع الزمالك تشابكتْ أصابعهما، تمشَّيا في شبه تلاحم بجوار النيل الهادئ راقها جدًا أن ترى النيل معه؛ الإضاءات المختلفة الألوان والحديثة الأحجام على صفحة النيل، والتي تصنع مع الظلمة الخفيفة ولون الأشجار وكثافتها جوًّا رومانسيًا ناعمًا ينعكس على كل شيء في الوجود، حتى لكأنَّها تحسُّ طعمه في حلقها، ويجعلها تقارن بين وجه النيل ووجهه، فتكتشف أنهما متشابهان جدًا لدرجة التطابق.

وفي عظمة وشموخ النبلاء طلب منها أن يُقبلها في جبينها . . لم تمانع . . وأحنتْ رقبتها بزاوية حادة قليلاً نحو شفتيه، لمس كتفيْها بيديه ووضع ابتهالتَهُ الأولَى على جبينها . . . تصبَّب عرقها خجلاً . . ارتفع صدى صوت ضحكته المنطلقة مُجلجلاً في الفضاء، حتى كاد أن يسمعه كلُ مَنْ في ميادين الجيزة والدقي والتحرير والعتبة وتريومف وعين شمس و . . . . . و . . . . . و . . . . . ياااااه . . . انطلقتْ أسراب

الفرح اللانهائي المؤجَّل من كل جزء فيها . . رأتْه بعيون الفرح المجنون، ورأتْ في عينيه خُبث الماكرين، لكنها تغاضت عنه، وركلت بقدميها شياطين إفساد اللحظة، وأبعدت الباقين منهم تطوعًا بيديها بحذرٍ شديد، استجمعت شجاعتها من كل اتجاه وسألتْهُ:

- قل لي بصراحة . . ما هي فكرتك عن الحُب؟

- للمرة الثانية تسألينى السؤال نفسه . ومع ذلك سأجيب . . . أنا بَاااحب ربنا . . هاهاها . . . (ضحكتْ).

كانت فكرته عن الحب أنه ينطوي على جزء كبير مجرَّد ومُبْهَم، غير واضح المعالم . أصدر لها تصريحًا بأنه يعرف حب الأم جيداً وبلا حدود . . وأنه يكاد يعبد أمه . . وحدَّثها عن حب آخر يعرفه جيداً، حب الله، والعبادة، وأن إحساسه به كبير بل يصل إلى درجة التقديس، ومبتسمًا في تهكم أخبرها أنه يعرف حب الوطن طبعًا . . وقفز ليقف أمامها على الرصيف وكأنه يعتلي خشبة المسرح، وبصوت لا مهموس ولا مجهور غنَّى: (حُب الوطن فرض عليَّه . . . أفديه بروحي وعنيَّه . .) وما زال يضحك حتى قال بنبرة جادَّة: لكن الحب الذي تقصدينه هو عندي فكرة

مُربكة لي جدًا، لعدم وضوح معالمه. . لأنه غالبًا شاطئ غير ثابت، ولا أستطيع الوقوف عليه كمرسًى نهائي لتطوافي. . صدمها أكثر عندما قال إنه يعرف اللهفة وقوانينها، والشوق وقوانينه، وصدمها أكثر وأكثر عندما قال إنه يعرف أيضًا خلايا جسده وقوانين شوقه ولهفته ورغبته، وكل شيء يخص الجسد والروح والعاطفة والماء. . ماء هذا الجسد. . بالطبع يعرفه. . قال أيضًا إنه يعرف معنى كلمة خُلجان ومياه دافئة تسير ببطء في هذه الخلجان. وأنه يحس بها جيدًا وقت انسيابها. وبخُبث أُنثويٍّ زائد استدرجتْهُ لحكايات قديمة حدثت له وأسَّسَتْ لهذه الرؤَى:

– ومتى بدأتَ التعرف على هذه الأشياء.؟

– كان عُمري أربع أو خمس سنوات، أحببت بنت الجيران.

– ماذا. .؟

– اسمعي في صمت. . . وكُنا دائمًا نلعب معًا. وفي يوم من الأيام قبل الغروب في جوٍ صيفي ممتع، جرينا في سباق حتى وصلنا إلى ما خلف سور كبير لفيللا عائلة ثرية، على شمالها مساحات شاسعة من الخُضرة ـ غيطان يعني ـ نظرنا إلى بعضنا

البعض بشكل غريب، وكأن كل منا يرى الآخر لأول مرة.. وخلعنا ملابسنا وقبَّلتُها قبلةً قوية.. بالفطرة تعرفنا على بعض.

- معقولة دي..؟

- أتذكر أيضًا صديقة أمي الجميلة جدًا التي كانت تغازلني دائمًا وتقول لي: بنطلونك حلو جدًا.. هل يمكن أن تعطيني إياه..؟ وتشده برقة حتى ينزلق مني.. لماذا البنطلون تحديدًا..؟ لا أدري..!! لكن عندما كبرتُ وبلغتُ ظل هذا السؤال على بالي، وصورة تلك المرأة لا تفارق خيالي.. مع أنها امرأة كبيرة.. فماذا تريد من طفل..؟!

- لا..لا..لا أُصدِّقُكَ..

- قلت اسمعي في صمت... أتذكر كذلك وأنا في السنة الثالثة من المرحلة الابتدائية. أتتْ إلينا زميلة جديدة جميلة جدًا مثل القمر.. أحببتُها طبعًا لشدة جمالها ورقتها.. وفي آخر السنة الدراسية انتقلت مع أهلها إلى منطقة أخرى، ومدرسة أخرى. وظلت صورتها مُعلقة في ذهني لمدة تسع سنوات. كانت ملاكًا، بكيت كثيرًا لافتقادها.. لكنها ظلتْ بذاكرتي: أحفظ اسمها ثلاثيًا، وأعرف الكَفْر الذي انتقلت إليه مع عائلتها. وبعد

نتيجة الثانوية العامة صـمَّمتُ علـى رؤيتهـا وكنـتُ بـدأت أحـس بالأشياء جيداً (. . . . .) . أخـذت أصـحابي معـي وذهبنـا . . سألنا عن أبيها وتوصلنا فعـلاً إلى منـزلهم . وأنـا أضـرب الجـرس (قلبي طَبّ) خمسين مرة، وخُفت أن يخرج أبوها إلينا فعلاً . . أو أن تكون هي قد نسيتني فتدمِّر كل أحلامي . . وتخيلتُ نفسي أحضنها وأُقبِّلها . وأفقتُ على أختها تفتح الباب وقد تهلـل وجههـا فرحًـا عندما رأتني، وسمعت صوتها الدافئ يقول من الداخل : (مِينْ يـا عـبير) وهنـا سـقطتْ روحـي بـين قـدميَّ بمجـرد سمـاع صَـوتها وارتعشتُ ارتعاشة غريبة . . ودقَّ قلبي دقات غير معقولة . . قالت عـبير : إنـه هُـوَ . . وعنـدما خرجـتْ هـي إلينـا بنفسـها أصـابني الإحباط . . لقـد تغـير شـكلها تمامًـا . فقلـت لنفسـي : (هـي دي الأسطورة اللي بتدوَّر عليها يا حمـار . . ؟) سـألناها عـن أبيهـا ولم يكـن موجـوداً . . حمـدتُ ربنـا وإلا كانـت كارثـة . . وأخـذتُ أصحابي وعُدنا وأنا مُحطَّمٌ تمامًا . . دخلنا ـ بالمصادفة ـ معًـا كليـة التربية : أنا في قسم اللغة الإنجليزية وهي في قسم اللغـة الفرنسـية . وبخبث البنات سألتني : ـ هل جئتَ فعلاً لتسأل عن والدي . . ؟

أجبتها بابتسامة ميِّتة وبرود أعصاب و(رخامة): نعم. . وأنا (مبلِّم) ولم تفارق وجهي تكشيرة عريضة وتركتُها وانصرفتُ. . بعدها بأسبوع تقابلنا، صباح الخير، صباح النور، ثم فَتُرَ إحساسي بها جداً. وعرفتُ أنها تزوجتْ وطُلِّقَتْ منذ عامين. . جيرانهم قالوا لي إن هويدا طُلِّقَتْ. . طبعًا كان هذا حُب مراهقة، ولهذا فهو مُشوَّش وغير ثابت.

كانت (مَيّ) تستمع إلى حكاياته في صمت المذهولين لا المندهشين فقط. . أحستْ بنكبات كثيرة قادمة. . كما أحست بلسعة كبيرة في يدها التي يحاول لمسها الآن، وكأنها لسعة إناء نحاسي ساخن أمسكتْهُ بدون حذر وبدون احتياط. . لَمَّا عادتْ إلى بيتها فتحت شرفتها المفضلة، وأطلتْ إلى السماء كعادتها. لمْ تُحدِّث النجوم، ولم تلعب معهم، ولم تُشرْ إلى طائرة مارَّة لتصعد مع ركابها. . فقط وقفتْ مُتسمِّرةً تحاول استنشاق الهواء، أصابها دوار. . رأتْهُ مع بنت الجيران في الريف، ومع زميلته في المدرسة الابتدائي، ومع صديقة أمه الجميلة، ساورها شك في صدق حكاياته، لكنها حاولت أن تصدِّقَهُ لتلقائيته في السرد وصراحته

النادرة . . . اختطفَها من الشرفة العالية ومن الـدوار الـذي كـاد أن يوقعها في الشارع صوتُ جرس الهاتف :

– أنا آسف . . لم أستطع حضور الأمسية . .

– بالعكس . . لقد كنتَ معي طوال الوقت . . وتمشـينا معًا وحكيت لي عن كل شيء .

– كل شيء؟!

* * * *

obeikandl.com

(١٣)

مَانيكـانْ

(مَـيّ) ككاتبـة وروائيـة قديمـة، منهجهـا الرصـد التـاريخي للأحداث، تحاول تحليل الـنفس البشـرية، مشـغولة حاليًـا بـالمرأة وأوضاعها الاجتماعية والنفسـية، ولا تـزال ترصـد حـالات حيَّـة تؤكد رؤيتها . . .

(بخيتة) زوجة عم (مسلَّمْ) البواب امرأة غير عادية . . لا يبـدو عليها أنها زوجة بوَّاب . . . كل مَنْ شـاهدوها لأول مـرة اعتقـدوا أنها من سكان البرج . . هيئتها وماكياجها ورائحة العطر المتصـاعد من كل جزء فيها، وكأنها منقوعة في زجاجة عطر مستورد، كلـها أشياء تشكك في كونها بوّابة . . لا ترضى إلا أن تكـون (ليـدي) في الملبَس وفي الحركات وفي الحديث وفي كل شيء . . هي نسخة طبق الأصل من سيدات المجتمع . . لأنها تعيش بينهن منذ كانت طفلة : تواظب على حضـور الحفـلات الموسـيقية في الأوبـرا بفلوسـها . . وبخاصـة حفـلات الموسـيقى العربيـة، وحفـلات الموسـيقار عمـر خيرت ومصطفى ناجي ونيفين علوبة . تعرفهم بالاسم، وتحـدِّثهم

تليفونيًا بعد الحفل، تثني على عظمة الفن الذي يقدمونه، وتتمنَّى لهم دوام التوفيق خدمةً للفن الرفيع الذي هو الآن واجهة مصر الثقافية. . ولا تنسى أن ترسل إليهم باقات الورد في المناسبات الرسمية. تحرص أيضًا على حضور معارض الفن التشكيلي واقتناء ما يمكن اقتناؤه وما ترى أنه يستحق. . . أحد أقاربها ويعمل في نادي الصيد استخرج لها ـ بطريقة ما ـ كارنيهًا لدخول النادي. . وبحكم ترددها المستمر على النادي، وصِلَتها العميقة بمجلس إدارته فهي تساهم ـ بشكل غير واضح ـ في إعداد الأنشطة الفنية والثقافية التي تقام به. . (بخيتة) أيضًا على قدر كبير من الجمال، لكنها بدينة، يؤلمها جداً أن زوجها يغازل زوجة بواب العمارة المجاورة، والتي كثيراً ما صرّح لها بأنها غزال. . . ! !

في جلساتها الممتدة مع صديقاتها بالنادي ترفض الأيس كريم والمثلجات من المياه الغازية والعجائن أو المخبوزات التي تزداد فيها نسبة السُكر. . فقط تطلب الشاي وبدون سُكر، ولا تجلس في مكان واحد فترةً طويلة، تتحرك باستمرار، تقطع المسافة من الزمالك إلى النادي سيراً على الأقدام ذهاباً وإياباً. .

لا تشكو من تصرفات زوجها مع صديقته الجديدة ولا تتشاجر معه بسببها. بل لا تُدخل نفسها في معارك من أي نوع.. ولا تقف عاجزةً أمام مشكلتها.. وإنما تحاول أن تكسَب زوجها بقدر الإمكان، ذكية، تعرف من أين تؤكل الكتف، اكتشفت أن زوجها يحبُّ (بسيمة) لأن جسدها كما يقول غزال، فأرادتْ أن تكون مثلها إن لم يكن أحْسَن..

في آخر جلسة لها مع (مَيّ الشوربجي) أقسمتْ أنها خلال أسبوع واحد سينقص وزنها ٣٠ كيلو جرام.. فقد بدأتْ رجيمًا قاسيًا تحت إشراف الطبيب الخاص بها، كما بدأتْ عمل التمرينات الرياضية على يد مدرب النادي بصالة الجامينيزيم والتي تكتظ دائمًا بالسيدات البدينات، وأن المدرب يساعدها بكل قوته وبكل إمكانياته...

بعد أسبوع واحد كانت في البانيو بحمَّام شقتها (مانيكان) غارقة في دمائها..

كشفت تحرّيات البوليس أن القاتل هو مدرِّب النادي، الذي قدم لها كل وسائل العون لتحقيق مشروعها القومي (التخسيس)،

لأنه كان يعشق قوامها الذي أصبح كعود الخيزران، وأنه يُعدُّها لنفسه، ولّما رفضتْ أن تكون خائنة قتلها . .

في مأتم (بخيتة) بشقتها بالدور الأرضي، والتي تميّزتْ عن بقية شُقق العمارة بلوحة الموناليزا، ولوحات الرسامين صلاح طاهر، وصلاح عناني وغيرهما . تصاعدتْ رائحة القهوة، لتضيف للمكان إحساسًا وجوًّا خاصًا، جعل الحاضرين يعتقدون أنهم يزورون أتيلييه فنانة تشكيلية . . دار حديث السيدات في المأتم حول جسدها الذي كان قد أصبح ملفوفًا وفارغًا وممشوقًا، قُلن أنها صارتْ في أيامها الأخيرة أحلى وأبهى وأرق وأجمل مليون مرة من (بسيمة) امرأة بواب العمارة المجاورة . فيما كانت (مَيّ) تلعن هذا الجمال الذي أشقاها وأرهقها في حياتها وأرهق (بخيتة) بتمرينات رياضية ورجيم وجامينيزيم وحرمها من الحلويات ومن ألذّ الأطعمة، كما حرمها من الاستمتاع بالحياة وبرشاقتها، بعد أن حصلت عليها بشق الأنفس . . .

(بسيمة) وجدتها فرصة ذهبية كي تذهب إلى عمّ (مسلَّم) في شقته . كان يتعذر ذلك من قبل . . أما الآن وقد أصبحت الساحة خالية من ضرَّتها، فليس من المهم أن تكون مخلصة مثلها، وليس

مـن المهـم أن تطعـم أبناءهـا الصـغار، ولا أن تهـتم بزوجهـا المريض. . . المهم أن تبحث عمن يلتهم هـذه الفاكهـة الناضـجة، وعم (مسلَّم) رجل يقدِّر الفواكـه جيـداً، ويقـدِّس تفـاح الخـدود وبرتقـال الصـدر وعـود السيسـبان. . . وهـو الآن مؤهَّـلٌ تمامًـا لاستقبالها، لا يرجوها ولا يتوسل إليها أن تأتي. . فهـي لا تـزال تمارس لُعبتها! تحاصره بنظراتها الولهة المتتالية وحيويتها ونشاطها، تكثر من الوقوف أمامه في شباك (المَنْوَر) مسقط نور العمارة المطـل على شباك صالة شقته هو في الطابق الأرضـي. . تغمـز لـه بعينهـا اليمنى، وتشير له بيـدها اليسـرى، تبسـبس لـه بصـوت خفـيض فيسمعه وينتبه، تتأوَّه فيخـرّ جاثيًـا علـى ركبتيْـه مُنهـكاً القـوى، مسلوب الإرادة يرسل إليها إشارة، تفهم منها أنـه يجـب عليهـا أن تلف، وتأتي إليه من باب العمارة، أو أن تنط مـن شـباك المنـور، ناظرًا إلى الارتفاع المناسب جـدًا للشـباك عـن الأرض، والمناسـب جدًا لنزولها وصعودها دون مشقة. . وفي سرعة البرق وجدها بـين ذراعيْه. أصابعها التي لا تفتقد النعومة، وعيونُها المتوهجة، وفمها الناضج يرسلون رسائل عاطفية حارَّة، تزداد عن كونها عاطفية.

وفي مشهد رومانسي جدًا احتضنته بقوة، والتفَّتْ حوله كحيّة، فبدا (مسلَّم) مُسَلِّمًا ومدفونًا بين ذراعيها.. تكسَّر تمامًا.. وأصبح طائعًا كخاتم في إصبعها، رغم هيئته الضخمة وشاربه العريض الذي يقف عليه الصَّقر كما كان يقول الناس عنه في بلاده التي انْحدر منها..

لم تشعر بوخز شُعيراته في خدَّيْها وشفتيْها وجفونها وهي لا تدَّخر جهدًا في خدمة الموقف... فجأة.. رأى (بخيته) زوجته أمامه.. عيناها تدمعان برفق.. وببراءة لا تضاهَى تتحدَّى براءة كل أطفال العالم، وبحنان القبر الذي أخرجها الآن سألتْهُ معاتبة عتاب المحبين:

ـ "كده يا مسلَّم...؟! ده أنا دمِّي لسه ما بردْشْ" جاءت المقارنة بينها وبين (بسيمة) في غير موعدها... الآن تحديدًا هو في حالة من الخدر اللذيذ.. كان وقْع المقارنة على جسده كطعنات سكين حادة.. آلَمَهُ ذلك بشدة.. أطلق آهةً طويلة وعريضة وضخمة بحجم الحياة... حاول أن يطرد الأفكار المرتبكة من رأسه لكنه عجز عن ذلك. وعجز أيضًا عن أن يُرضي (بسيمة) التي اتهمتهُ في رجولته، فأحس بحرجٍ شديد أعمق من أعمق جزء في

المحيط الأطلنطي. ازداد غضبُهُ وفارت الدماء في شرايينه، وهبَّتْ نخْوة الصعيد من داخله، تنمَّر عليها، صفعها صفعةً واحدة سمعها الحي كله، سخرتْ منه واتهمته في رجولته مرة أخرى... فاشتاط غيظًا.. بأصابعه القوية الخشنة، وبعظامه وعروقه المتضخمة في يديْه قبض على رقبتها الجميلة... ظلّ يضغط بقلب ميّت، وبعنف وغلظة مَنْ يأخذ بالثأر لعزيز كان لديه قتلوه ظُلمًا... و(بسيمة) مذعورة، تتلوَّى كأفعَى، تضرب الهواء بقدميها الحافيتيْن، تحاول بكل قوتها أن تتخلّص من يديْه دون جدوى. عيناها اتسعتا أكثر وأكثر، خرج لسانها من بين شفتيْها كالثعبان الهارب من جُحْره.. وفي أقل من دقيقتين كانت قد أسْلَمَتْ الروح وفارقتْ الحياة.. وهو يصرخ باكيًا:

- منِّكْ لله.. انتِ السَّبب في مُوتْها..

عندما قرأت (فريدة عبد الهادي) خبر وفاة (بسيمة) أحضرت الجريدة فوراً إلى (مَيّ) وسألتها:

- ما الذي يحدث.. عمارتكم ماذا بها.. حادثتا قتلٍ في أسبوع واحد.....؟... غريبة...!!!!

لم تُبد (مَيّ) تعجبًا ولا اندهاشًا لما يحدث.. وأجابتها بكل ثقة:

- ولنْ تتوقف الحوادث طالما هناك ذئاب بشرية تعيش بيننا... بِيادَاتْ فعلاً.. أتشربين شايًا معي...؟

* * * *

obeikandl.com

(١٤)

مُراوَغَة

لمْ يخفت صوت المكالمات الهاتفيّة التي تستقبلها (مَيّ) بشيء من الاستسلام، والتي أدمنتْها حتى الثُمالة، وبدأتْ تنتظرها وتتعجَّلها، وتنظر إلى الهاتف كثيرًا لعلّه يدق الآن.. وبالفعل يدق.. ولكن.. ليس هو.. لعلَّه في منزله.. تنظر في الساعة.. ليس موجودًا.. لعلَّه في العمل.. تتمنَّى ذلك.. تتأفّف احتراقًا.. تطلبه في العمل، ليس موجودًا.. تجلس بجوار الهاتف كمن ينتظر القطار الذي سيقلُّهُ إلى بلاد الأحلام والسحر والخيال... تعاتب نفسها أحيانًا وتعطف عليها أحيانًا أخرى.. تؤنِّب ضميرها مرة وتشفق على قلبها مرة أخرى.. تتمنَّى أن يتصل بها وفي ذات الوقت تتمنَّى ألاّ يتصل.. واقفة هي بين الجنة والنار.. مع أنه لا توجد منطقة وسطى ما بين الجنة والنار ـ تردد قول نزار قباني بابتسامة خفيفة غير معبِّرة ـ لا تدري إن كانت تصرفاتها تجاهه سليمة أم غير ذلك.. لقد كانت قبل هذه اللحظة لا تؤمن بالحب؛ ولا تعترف بوجوده. كانت تعتبر الحب (لعب

عيال) و(كلام فارغ) وما ينتج عن الإيمان به مجرد تصرفات صِبْية ومراهقين، ولا يتعدى ذلك حتى ولو حدث في مرحلةٍ متقدمةٍ من العمر . . .

ما الذي يتسرَّب إليها من خلال صوته كانسياب الماء في الأرض العطشَى . . ؟ ما الذي يتغلغل في كيانها ويمرُّ بين نسيج جسدها مرور خيوط الشمس بدفئها الناعم من زجاج شفاف . . ؟ ما الذي له طعم التفاح ورائحة الفل والياسمين وتشمُّه عبر صوته ذو البَحَّة المميَّزة والذي تتوحد معه توحداً ملحوظًا يثير انتباهها . . ؟ تهمس: ولماذا أنتظر لقاءه ولا أذهب، وإذا ذهبتُ يهنئني ـ باستخفاف ـ على إفساد اللحظة . . ؟ جرس الهاتف يخرجها من دائرة التفكير وتعدد الأسئلة:

- أين أنت يا سيدتي . . ؟ ولماذا كل هذا الانقطاع الطويل عني . . أليسَ من حقي أن تسألي عني . . ؟

تردّ وكأنها لم تحاول الاتصال به ولو مرة واحدة:

- أعتذر بشدة، فقد شغلتني الحياة بأمورها الكثيرة . . وما تعرفه عن مشاغلي يعفيني من التعليل.

- متى سنلتقي . . ؟

- أعتقد أنني حسمتُ هذا الموضوع من قبل . .

- سيدتي . . لن أتركك تفسدين الأشياء هكذا . . لأول مـرة في حيـاتي أرى امـرأةً تكبِّـلُ نفسـها وتكبِّـلُ مـن معهـا بهـذا الشكل . .

- أنت لا تؤمن سوى بشيء واحد اتضح لي منذ الكلمة الأولى بيننا . . وهدفك واضحٌ وصريح . . . !!

- ستحترمينني دائمًا لصدقي وصراحتي . .

- ولكن . . .

- اسمعيني جيداً . . إن حبي لك كبير وعظيم ومحـترم، وأنا وأنت معًا سنحقق نجاحًا عظيمًا في هذه التجربة . وأكرر (معًا) وليس وحدي . . كما أنني لم أعُدْ قادرًا على تحمل فشـل اللحظـة مرة أخرى . . إذا كان ما لديك عظيم فما لديَّ عظيم أيضًا . .

- وأنا سيدة محترمة . .

- أشعر بالإهانة . . فاسْحبـيها من فضلك . . فأنا رجل محترم . . وحبي محترم . . وأرفض الإهانة .

- لم أقصد ذلك . .

- أنت ناضجة بشكلٍ كاف . . وأنا وأنت رجل وامرأة . وأنا أيضًا رجلٌ ناضج بما فيه الكفاية . . سأكرِّر أنا وأنت رجلٌ وامرأة . . فلماذا تراوغين نفسك . . أنا لا أحب المراوغة ومنكِ أنت تحديدًا . . أحدّثك بقلبٍ مفعم وإحساس صادق واحتياج حريقٍ مشتعل إلى مزيد من الحطب . . من فضلك . . لا أستطيع إعطاءك ضمانًا بأنني أصبحتُ أسعد بالفشل .

- سأحضر اليوم . . . علَى أنْ . . . . . .

- لو كنت تمتدين بالفشل إلى اليوم فلستُ في حاجة إلى فشل جديد . . أنا في حاجة إلى نجاح مستمر لأجلك ولأجلي . . ولتكن لك أدواتك ولي أدواتي . . أنا جدير بكِ . . وبدون أي قَسَم ستعلمين أَنني جدير بكِ . .

- أرجوكَ . . لا تُحدِّدْ شكل اللقاء . . فهذا يقلقني . .

- أحذرك من تكرار فشل اللحظة . . سننجح معًا ولا أظن أنكِ ستنجحين وحدك . . كما أنني لن أنجح بمفردي . . أنتِ

ناضجة وذكية . . امرأة . . أُنثَى . . كفاكِ مراوغةً ومكْرًا . . فالمكر ليس من صفات الطوال المشوقات مثلكِ .

(مَيّ) تضع سمّاعة الهاتف والخوف الذي يتملَّكها لم يعد بحجم الحياة . . بل ازداد حتى أصبحت لا تستطيع تحمُّله . . أرادت أن تبكي ويرتفع صوتها بكاءً حتى لتسمعه الدنيا كلها . . توجهتْ نحو المكتبة . . لم تعد لديها القدرة على القراءة، لم تعد ترى شيئًا من الأساس، عيناها زائغتان تتأملان الأثاث وجدران الشقة وكأنها تراها لأول مرة . . عقلها ثابت لا يتحرك، يجلس الآن على كُرسي مُتحرك بعجلتيْن ضخمتيْن مشلولاً . ليس ثمة أمل في شيء . يتساوى لديها الإحساس تجاه نفسها وتجاه الآخرين وتجاه الأشياء الجامدة . . أبناؤها يأتونها كالعادة، يلتفون حولها، تشعر بوجودهم بعد فترة، تنظر في وجه طفلها الصغير، وتحمله بين ذراعيْها . تحتضنه كأول حضن له لحظة ميلاده . تلمس خدَّيْه الناعمتين بظهر كفِّها، يَدخلُها شعور جميل ورائع يقطعه جرس الهاتف :

ـ اسمعيني جيدًا . . أنا رجلٌ وفخور برجولتي . . وأنتِ تكذبين على نفسك . . أنتِ لي . . أعلم ذلك جيدًا، كل ما لديكِ

يقول ذلك . . اسمعيني جيداً . . الشهيق الذي تأخذينه في كل لحظة ليمنحك الحياة هو في الحقيقة زفيري أنا . . والإشراق الذي تشعرين به الآن إشراق صباحي أنا . . وخطواتك الفائتة كلها كانت تبحث عني أنا . . وخطواتك القادمة اليوم وغداً ستكون نحوي ومن أجلي أنا . . كفاكِ مراوغة . . امسكي بلحظتك قبل أن تضيع منك . . فأنا ممسك بها ولست على استعداد أن تضيع لحظتي مني . . أنتِ لحظتي فاجعليني لحظتك التي تحرصين عليها . . لا تقفي ضدَّ الطبيعة . . . ! !

وفي توترٍ ملحوظ وترددٌ أكثر وضوحًا تشير إلى آراء الرّجل في المرأة المتحررة . فهو إما يعتقد أنها امرأة فاسدة . . أو يعتقد أنها امرأة مُدرَّبة على مثل هذه اللقاءات . . أو أنها متفرغة لشهوتها فقط ، تشجعها وتؤججها باستمرار . . ثم أن الرجل في معظم هذه الحالات يتصرف مع المرأة كمن يأكلون الوجبات الجاهزة فيلقون بالأطباق الورقية الفارغة في سلة المهملات ، وقد يرمونها في الشارع ، وربما بعضهم يجعل من المرأة تسلية له . . أو . . . . أو . . . .

ـ هذه محض أوهام . . أرجو ألا تسيطر على ذهنك بهذا الشكل . . أنا لستُ لعبة في يديك وأنت لست لعبتي . حملتُ إليك مشاعري الحقيقية بجديّة ، حملتُ إليك أحاسيسي وحاجتي إليكَ بحق ، ولم أهذ للحظة واحدة ، ولمْ أخَفْ من مصارحتك ، ولمْ أتردَّدْ . . لأن ما أكنُّه لك كان وسيظل حقيقيًا بالفعل . . وأنا مسئول مسئولية كاملة عنَ كل حرف قلته لك . . ضاع وقت كثير لمْ أندم عليه ، ولم أأسف عليه ، لأنني صارحتك في النهاية ولم يبقَ عليك سوى الإمساك باللحظة . . (أنا نفْسي فيكي . .)

حتَّى هذه الجملة الأخيرة التي حركتْ كل مسام جسدها لم تجعلها تتنازل عن جزء من موقفها . . . عنيدة . . ؟ ربَّما . . قوية . . ؟ ربَّما . . تجد في ذلك متعة ما . . ؟ ربَّما . . لهذا أكدتْ أنها لا تزال تشعر بوجودها على ضفة بحرٍ واسع ، بينما هو على الضفة الأخرى ، وبينهما ما بينهما مَن أمواج عالية وعاتية تخشاها . . .

ـ إذنْ عندما تجدينني معك على ضفة واحدة كلميني ، وأراك . . لكن قبل أن تكلميني وقبل أن أراكِ تأكَّدي أولاً منْ أننا نقف عَلى ضفةٍ واحدةٍ . . ولتشهدي معي ساعَتئذٍ أنك أنتِ التي

أخَّرت هذا اللقاء كثيراً، وبيديك أنت . . فأنا لن أجرجرك إلى ضفّتي، ستأتين أنت بنفسك . . . نعم بنفسك لتشهدي وقتئذٍ بجمال اللحظة وروعتها .

(مَيّ) تحاول أن تتمالك أعصابها المخدَّرة . . تتحرك ببطء شديد . رأسها تدور مثل دوران مروحة السقف المضبوطة على أعلى سرعة . يمر أمام عينيها شريط سينمائي حافل بلقطات لحظات غرامية سابقة . تدرك أنها لم تستطع الاحتفاظ بأحد أبطالها لفترة طويلة لنفس الأسباب : الأدب، الأخلاق، العيب، الحرام، الظنّ السَّيئ من الطرف الآخر، كلام الناس، الخوف من الشائعات التي تملأ الساحة الأدبية والإعلامية، قدرتها الفائقة على استلاب الجمال من الأشياء، قدرتها على إفساد اللحظة، والتوقف عن الاستمرار فيها رغم جمالها، قدرتها على كبْت مشاعرها وكتم أحاسيسها دون رأفة، ودون رحمة . كل مَنْ جلستْ معهم على انفراد قالوا لها : أنت مستبدة، سلطوية، ظالمة لنفسك قبل أن تكوني ظالمة للآخرين، أنت لا تحبين الحياة، أنت لا تحبين نفسك، لو أحببت نفسك جيداً لكنت أحببت اللحظة، أنت بركان مشاعر مكتوم، مَنْ الذي أعطاك حَق كتمْ فوَّهة البركان،

كل ما فيك ناطقٌ وثرثار، فلماذا تسكتين أعتقد أن فورة البحر الغاضب وثورة الدماء في عروق كل البشر مستلهمةٌ منك، فكيف تقفين هذا الموقف الضِّدي الذي لا يتناسب إطلاقًا معَ شكلك وقوامك ومشاعرك الرقيقة، أنا مشغولٌ بإقبالي عليك وأنت مشغولة بمقاومتي، أنت تصلحين للحديث فقط وليس الفعَل، (إنت بتاعة كلامْ وبَسّ) وَاحدٌ فقط قال لها: أنت باردة وآخر قال لها: أنت صبورة جدًا، وثالث قال لها: أنت مُعَقَّدة.....!!

مروحة السقف تدور وتلف بأعلى سرعة. ورأس (مَيّ) تدور وتلف بأعلى سرعة.. أقوال الأصدقاء أو المحبين أو الراغبين لها تؤلمها.. تكزّ على أسنانها حتى تكاد عضلات فكَّيْها تخرج من لحم خدودها. لا تدري ماذا تفعل، تقف أمام المرآة فلا ترى وجهها، تمسح المرآة بيدها عدة مرات، تتأكد من أنها موجودة، تتنفس وتعيش، تحملق أكثر وأكثر في المرآة، يفاجئها شَعْرٌ أبيضٌ يكسو مقدمة الرأس، وتجاعيد كثيرة في مؤخرة العينين وحول الرقبة، تسرع إلى الحمّام، تبحث عن زجاجة صبغة الشَعر، وكريمات فرْد الوَجْه....

****

(١٥)

مفاجأة جديدة

على مائدة العشاء، (محمد) يتحدث مع (رشا) ابنة أخته، يسألها عن المذاكرة وأخبار الثانوية العامة. و(رشا) تمارس سرحانها اليومي، تحرك يدها فوق المائدة بآليَّة شديدة، تلتقط ملعقة ولا تفعل شيئًا بها، تضعها مرة أخرى على المنضدة. تأخذ كوب الماء، ترشف واحدة ليس لإحساسها بالعطش، ولكن لكي تفعل شيئًا ما، يوهم الجميع بأنها معهم بتفكيرها وتصرفاتها، وليس بجسمها فقط. . . .

خالها يكرر السؤال عليها، تنتبه وتردّ بلا مبالاة مؤكدة أنَّ كل شيء تمام والحمد لله. . (مَيّ) تتدخل في الحوار القصير جدًا رغم انشغالها بإطعام الأبناء الصغار، وكذلك بـ (محمود) الذي يفتح حوارًا عائليًا جدًا وعاديًا، وفجأة يحوِّله إلى حوار عن كوسوفا ولبنان وحرب الصِرب والشيشان.

وكأنه متضرِّرٌ جداً من هذه الحروب التي حوَّلتْ العالم إلى غابة، القوي فيها يأكل الضعيف. . عندما وصفهم قال: "كلاب. . . (جزَم). . . . !! "

بعد العشاء دخلتْ (رشا) إلى حجرتها بصحبة خالها بحجة أن يرى الأعمال الفنية التي رسمتْها، وأنها أصبحتْ ذات أصابع ماهرة عبقرية بعد أن كانت لا تحب مادة الرسم. بعد صفحة واحدة من تقليب صفحات كراسة الرسم أشارتْ إلى خالها بأنَّ موضوعًا هامًا في حياتها تريد أن تأخذ رأيه فيه، على أنْ يساعدها ويقف بجوارها باعتباره خالها الوحيد. . (محمد) ينتهز الفرصة ويستمع إليها جيداً وهي تهمس في أذنه بقصتها مع مدرس اللغة الألمانية. . تقول له إن الأجانب عمومًا مخلصون، وأنها لا تحبه من أجل عيونه الزرقاء وشعره الناعم، ولا شكله العام الذي يشبه الفنان (حسين فهمى) وإنما لأن الأجانب مخلصون، ويتعاملون مع المرأة بحب وبإنسانية عالية، ويمنحونها حقوقًا كثيرة وفرصًا كبيرة من الحرية غير متاحة للمرأة الشرقية. وهم أيضًا جادون جداً ولا يعرفون (الهزار).

(محمد) يهمس لنفسه: (الله يخرب بيتك يا قاسم أمين..)
يتسرب إليه شعور كبير بأنه لن يستطيعَ إقناعها بإخراج الفكرة من رأسها، فقرر أن يؤجل الحديث معها إلى ما بعد الامتحانات، وقبل أن يخبرها بقراره هذا، أكملت (رشا) كلامها عن المدرس الألماني.. فذكرتْ أن الألمان تحديداً أكثر رجال العالم تقديساً للعمل، وأن الرجل الألماني من الممكن أن يضحّي بكل شيء في سبيل عمله، وكأنهم يؤمنون بالفكرة الإسلامية القائلة بأن "العمل عبادة".. وصحيح أن مُرتَّب المرأة العاملة في ألمانيا أقل من مرتب الرجل، حتى لو تساوت معه في الوظيفة، وفي النجاح وفي الجودة، إلا أن هذا هو الفارق الوحيد في المعاملة بين الرجل والمرأة، وما عدا ذلك فهم يقدِّسون المرأة جداً لدرجة العبادة.. وحالياً هم يحاربون ظاهرة عدم المساواة بين الرجل والمرأة في المرتبات، ويحاولون كذلك تعديل وضع المرأة باستصدار قوانين جديدة لصالحها.

هم أيضاً يحبون التعليم في كل المجالات وفي كل شيء حتى مهنة الجزارة لها منهج دراسي ويتم تدريسه في معاهد خاصة لمدة ٣

سنوات . . وصحيح أن هذه قوانين بلادهم لكنها أعجبتني جداً جداً . . أتمنى أن أجد نفسي فيها ومن خلالها . .

- لكن . . من أين جئتِ بكل هذه المعلومات؟

- من مستر كول نفسه . .

الرجل الألماني يا خالي ذو شخصية قوية ، ، يقاطعها : (يعني إحنا ما عندناش شخصية يا ست رشا . . . . ؟) تعلق بسرعة : (لا ماقصدش) وتكمل ؛ نشيط ولديه طاقات غير عادية . . ويعرف القوانين جيداً . . لقد قال لي مستر كول أيضًا أن جميع الألمان صغاراً وكباراً يحفظون القانون، ويحترمونه، ويسيرون عليه، ولديهم انضباط غير عادي . . ولذلك فإن الدولة هناك تمنح كل طفل مولود حديثًا مبالغ مالية محددة، وتزداد كلما تقدم في العمر إلى أن يصبح عمره (١٨) سنة . هذه المنحة يتم تقديمها من قِبَل الدولة بانتظام كحق من حقوق الطفل . . حتَّى الأسرة التي تعول أطفالاً فإن الضرائب المستحقة عليها تكون أقل من الأسرة التي ليس لديها أطفال .

- أمعقول إن مستر كول ظل يحدثك عن كل هذه الأشياء . . . ومتى . . . أثناء الدرس . . ؟! لم يكن درسًا إذن . . كان غسيل مُخ

وغسيل دماغ . .

- إلى حد ما . . قبل الدرس وبعده كده يعني . . . حتى أنه قال لي : إن الترابط بين أفراد الأسرة الألمانية أقوى وأشد من الترابط بين أفراد الأسرة العربية . . ولذلك فمن الضروري جدًا أن يجتمعوا على الطعام ويشبّكوا أيديهم لعمل حلقة واحدة، ويقومون بأداء صلاة الشكر قبل الأكل وبعده . . قلوبهم بيضاء . . فالأغنياء والفقراء منهم جميعهم يتبرعون من أجل المجاعات التي تحدث في أثيوبيا وغيرها من البلاد، ويتبرعون من أجل المشكلات العالمية الأخرى، كفيضانات الهند . . وأثناء حرب العراق مع إيران، وأثناء الحصار الذي فرضتْهُ أمريكا على العراق بعد غزوها للكويت، اعتصم الشعب الألماني في الميادين العامة، وأشعلوا الشموع الكثيرة تعاطفًا مع الشعب العراقي وأطفاله الأبرياء، وأرسلوا العلاج والمعونات الصحيَّة للمصابين من الصواريخ .

- مواقف نبيلة فعلاً . . . ! وحصلت في مصر . . .

- لقد بلغت بهم الرحمة بالأطفال مداها لدرجة أن السيدة الألمانية من الممكن أن تحتفظ بابن الجيران لو اختلف أبوه وأمه على شيء، أو حدثت بينهما مشاجرات متعددة. ويظل الطفل لدى الجارة برغبتها. وعندما يتصالح والداه قد تفكر هي في إعادة الطفل إليهما، ولها حق الاحتفاظ بالطفل لعدم قيام أسرته برعايته الرعاية المتميزة، وبخاصة الرعاية النفسية..

- هل تنوين عمل دراسة دكتوراه عن المجتمع الألماني عاداته وتقاليده..؟

- بالطبع لا.. لكن من أبسط الأشياء التي أعجبتني في مستر كول أنه يحب المشي مثلي ويحب القطط مثلي، والبطاطس المحمرة والكرنب واللحم الملفوف بالخضروات، ثم إنه أعلن إسلامه.. ألا تعلم ذلك..؟

تسمَّر خالها في مكانه.. واندهش بل أصابه الذهول من طريقة حديثها عن الألمان الذين أرسلوا لها مستر كول.. مذهول أيضًا من كمّ المعلومات التي تعرفها عن أبناء هذا الشعب.. لمْ يشغل نفسه كثيرًا بطريقة حصولها على هذه المعلومات، فسواء قرأتها في الكتب، أو حكاها لها هذا الرجل فهي الآن متعلقة به لدرجة

الجنون . . المهم ماذا يفعل الآن . هل يقول لها إنها لم تعرف إلا الجوانب الإيجابية فقط في الشعب الألماني ، وإن مستر كول عندما حكى لها عن نفسه كان مجاملاً لشعبه جداً . . ؟ من الواضح أنه يخطط لكي يأخذها لتعيش معه هناك في بلاده . . ولهذا جمَّل لها المجتمع الذي ستعيش فيه . . . فهل أحكي لها عن حقيقة وضع المرأة هناك . . تلك التي إذا استغاثت ممَّن يضربها بطلقات ناريّة فلن ينقذها أحد . . فنخوة وشهامة الرَجل المصري لم تجدها في أي بلد آخر . . ؟! . أم أحكي لها عن جفاف المشاعر في التعامل مع الناَس . الألماني قد يتعارك مع شخص لمجرد أنه ألقى عليه تحية الصباح أو جُملة "نهارك سعيد" دون سابق معرفة . . الألماني قد يترك زوجته في الشارع الساعة ١٢ بعد منتصف الليل لو اختلف معها خارج البيت . . معظم الألمان يُقْدِمون على الانتحار بسبب الوحدة والانطواء وعدم وجود الأصدقاء . . هذا الجو الصداقاتي الحميم الذي لا تخلو منه شوارع مصر وحواريها . . ومَنْ الذي قال لها بفكرة المساواة بين الرجل والمرأة هناك . . ؟ بالعكس هناك تمييز كبير بينهما في كل شيء . . حزب الخُضْر فقط هو الذي يمارس العدالة والديمقراطية هناك ؛ فعدد النساء فيه مثل الرجال . . هل أُحدِّثها عن كل هذه الأشياء . . أم أُحدِّثها عن هتلر ، وماذا ترك في

شعبه . . شعبه الذي لا يحبه لأنه مجنون حرب . . الخراب والدمار والحصار والديون والسجون والتقسيم والاحتلال في بولندا للآن كل هذا سَبَبُهُ هتلر . . وحتَّى حصار الصناعات الحربية . . . . . إلخ . وكيف تفكر (رشا) في النزوح إلى تلك البلاد التي تنتشر فيها الجريمة بشكل كبير ، لدرجة أن سيارات الشرطة وسيارات الإسعاف لا تغفل ولا تهدأ ليلاً ونهاراً بسبب الجرائم والجيستابو والشيوعية . . . إلخ . . . لا . . . لا . . لن تذهبي معه . . لن تذهبي . . . . . !!

اختلط النفي المسموع بمفردات حقائق كان خالها يفكر أن يحكيها لها ، محاولاً إبعاد فكرة زواجها من المدرس . وأفاق على صوته وهو يردد ويكرر نفس الجملة : لا . . لا . . . لن تذهبي معه . . لن تذهبي . . !!

أدركتْهُ (رشا) قبل أن تنزل يده اليمني على زجاج الشباك . وقبل أن ينكسر وتُجرح يده . . . فـ (رشا) تحب خالها لدرجة الجنون ، وتخشى عليه من الهواء الطائر ، وهي لا تدري ماذا جال بخاطره الآن ، يستأذنها في تأجيل الحديث معه . . يخرج من حجرتها فيرى والدها (محمود) يقلِّب قنوات التليفزيون ، ويصب اللعنات

على الحروب والمتحاربين، وعلى التليفزيون الذي أصبح يصيبه بحالات الزَّهق والملل والاكتئاب من كثرة البث المباشر لحروب جنوب لبنان والصرب وكوسوفا وغيرها، وكأنهم أبرموا مع الشيطان عقوداً وعهوداً بهدف تدمير الإنسانية واغتصاب النساء.. شيء غريب وعجيب..

(مَيّ) تتمتم فيما بينها بكلمات تؤكد أنه في معظم الأوقات يترك التليفزيون مفتوحًا بالساعات دون أن ينطق بكلمة، لأنه إما يتفرج في صمت أو لا يتفرج لسرحانه الطويل، أو لنومه العميق أمامه.... وتندهش لموقفه من الاغتصاب الذي يمارسه المعتدون على تلك البلاد، مؤكدةً لنفسها أن موقفه المُشابه معها مشروع.. وغير مُحرَّم دوليًا.. تقدِّم إليه الشاي رافعةً أحد حاجبيْها إلى أعلى، ومبتسمةً ابتسامة غير مفهومة المعنى، وتنادي أخيها كي يشرب الشاي معهما.. لكنه يعتذر ويرحل.

في نفس اللحظة يصل إليها صوت فيروز (حَبَّيْتَك بالصيف.. حبَّيْتَك بالشتا) منبعثًا من حجرة ابنتها الكبرى.. فيجن جنونها لاعتقادها بأن هذه الأغنية رسالة مشفَّرة مُرسلة إلى المدرس الذي قلب حياتهم. فتسرع إلى جهاز الكاسيت وتغلقه،

متعلّلةً بالمذاكرة والامتحانات. فتُخمد في قلب (رشا) ذلك الإحساس الجميل الذي أحستْ به منذ لحظات، والذي أشعلها عندما نظرت من النافذة ووجدته قابعًا في شرفته بالجانب الآخر للبرج حيث يقطن، تخيلت أنها تراه فالمسافة بين تلك الأبراج بعيدة ولا تسمح بالرؤية الواضحة. . . . . لكنها تعتقد أن المحبين يرون بعضهم عن بُعد. و(مَيّ) تتوقع ذلك فتنظر من النافذة وتغلقها كما أغلقت الأغنية دون أن تنطق بكلمة واحدة، فنظراتها العميقة في عيون (رشا) قالتْ كل شيء. . دائمًا هناك مؤجَّلات، وأولويات. . (مَيّ) تخرج من حجرة (رشا) وتعود في نفس اللحظة لتقول لابنتها: لن تذهبي إلى معهد جوتة اليوم.

جرس الباب يدق. . (فدوى) صديقة (رشا) تهرول مسرعة إلى حجرة صديقتها في بكاء مخنوق. تتمتم بكلمات مبهمة تفهم منها أنها اغتُصِبَتْ بإرادتها، وبرغبتها، بعقد زواج عُرفي، لكنها أفاقت، ماذا تفعل، لا تستطيع مواجهة الناس والحياة، وهل كان هذا زواجًا حقًا. . هل كان حُبًا. . أم رغبة. . ؟. . وهل تختلط معاني الحب والرغبة أحيانًا. . . . . ؟!

(مَـيّ) تضـرب صـدرها وتلطـم خـديَّها . . تسْـوَدّ الـدنيا في عيونها . . تشعر بإحساس المقبوض عليها كرهينـة وحيـدة ضـمن عملية سياسية كبيرة، والمسلحون يُشهرون أسلحتهم في بطنهـا وفي ظهرها في ثوانٍ. فاقدةً كل الأمل في أن يتمكن رجال الشـرطة مـن تحريرها . . يزداد خوفها على صديقة ابنتها، كما يزداد خوفها على ابنتها تمامًا . . تتمنَّى أن تنشق الأرض وتبلع كل الرجال على وجـه الأرض . . تُردِّد في صمت المقهورين المهزومين التائهين في بلدٍ كـل مَنْ عليها يعرفهم:

– ابن الكلب . . اصطاد في المياه العكِرَة.

لقد كانت (فدوى) تحتاج بشدة إلى صدر حنون يعوضها فقدان أمها التي ماتت منذ طفولتها، ويعوضها فقدان أبيهـا الـذي تـزوج من أخرى، لا تعرف معنى الرحمة ولا تنوي معرفتها مسـتقبلاً . . . هل من حق المستجار أن يفترس المستجير به بهـذا الشـكل مسـتغلاً نقطة ضعفه . . . . ؟!

بين الدموع والتساؤلات أحضرت (مَيّ) لـ (فدوى) كوبًا مـن الماء، ثم كوبًا من الليمون لتهدّئ أعصابها . . لكن (فـدوى) الـتي انهارتْ قالت إن زوجها المزعوم تنكَّرَ لها، وللجنين الـذي تحتويـه

أحشاؤها . . وبعد بكاء شديد أعقبه هدوء شديد راحت (فـدوى) في نومٍ غير عميق على سريرٍ (رشا) فتركتها وانزلقتْ بجوارها تفكر وتفكر . . . . فيما تنظـر (مَـيّ) في عيـون ابنتهـا . . وابنتهـا تفهـم الإشارات والدلالات وتعي تمامًا النصائح الصادرة بدون كـلام . . فتتركهما وتخلو بنفسها في ركن الصـالة المفضَّـل لـديْها . . تتـذكر موعدها معه اليوم والذي سوف تؤجله كالعادة :

– هو يومٌ واحدٌ فقط . . أو يومان على الأكثر .

– أرفـض التأجيـل . . ولسـت في حالـة تسـمح بـأن نتعذب . . الأمر أيسر بكثير من أن يكون صعبًا عمداً . . ثم كيـف لا تكوني في حاجةٍ إلىَّ كحاجتي إليكِ بالضبط . . ؟!

– الحكاية ليستْ هكذا . . . .

– إذن لمَ نؤجل موعداً بيننا . . فتأجيـل هـذا الموعـد في نظري فشلٌ جديدَ أعتذر عنه . . ولن أقبله . . إن ما تفعلينـه معـي يليق بالبُلهَاء وأنا لستُ أبْلـهًا . . إن كـل مـا فيـك ينطـق بـاسمي وينادني . . والحاجة إلى بعضنا مشتركة . توقفي منَ فضـلك عنـد هذا الحد من العناد والمكابرة، فليس مطلوبًا مني أن أظـل في حالـة تعذيب دائم ومستمر . .

- أنا خائفة . .

- مِمَّ تخافين . . أنا لستُ قرصانًا . . هذه إهانة أخرى أرفضها . . تصرّفي كسيّدة ناضجَة، وكأُنثى لها مشاعرها الناضجة . . ولا تلتفِّي حول الأشياء هكذا . . كفاكِ مراوغة . .

- سنلتقي غدًا وليس اليوم لأحكي لكَ عن شيء مهم .

- إذا لم نلتق اليوم فلا معنى للقائنا غدًا .

أنا لم أسمع عن ثورة أو مظاهرة، يشترك فيها من لا تتفق أفكارهم وأهدافهم، أو يشترك فيها مَنْ لا تتفق احتياجاتهم . .

- ما بيننا لا هو ثورة ولا هو مظاهرة . .

- أنت أقدر إنسانة على جعل المشاعر عسيرة، بعد أن كانت نهرًا متدفقًا، وبحرًا لا تهدأ فيه الأمواج . .

- يا ليتكَ تحدثني عن الألمان . . أريد أن أعرفهم جيدًا . . .

- بارعةٌ في تغيير دفَّة الحوار . .

- أرجوكْ . . .

- أنا ضعيف أحيانًا أمام طلباتك . .

- أرجوك . . الأمر مهم ومُلِحٌ بالنسبة لي . .

- ماذا تعرفين أنتِ عن الألمان يا حبيبتي . . ؟!

- أعرف أن هتلر كان يكره اليهود جدًا، وقد حرق منهم الملايين في أفران خاصة . . وأعرف أنهم لديهم جدّية في التعامل مع الناس . . وأنهم ناس في حالهم، وأنهم في منتهى الدقة والالتزام في الكلمة وفي العمل، ولا يحيدون عن الحق . .

- أما أنا فأعرف مهندسًا ألمانيًا كان يعمل في شركة (بلفنجر برجر) الألمانية وتزوج مصرية؛ ولَّما مات هذا الزوج كان أبوها سيجن جنونه على ميراثها . وهو لا يعرف أن أهل زوجها سيعطون ابنتهُ حقوقها كاملة حتى لو كانت ملايين عريضة . . وبالفعل أخذت حقوقها كاملةً . . .

- هذا مهم جدًا . . أعتقد أنهم أيضًا أذكياء ولَّماحون .

- جدًا . . لدرجة كبيرة . . فلو أن أحدهم شاهد شخصًا غريبًا يحوم حول مكان مهم كأحد البنوك أو أحد المتاجر

فإنه يبلغ البوليس على الفور . . . (مش يقول وانا مالي زي ناس . . . ؟!!!)

– نعم عيونهم مثل عيون الصقر، ولا يسألونك فيما لا يخصهم . . .

(مَيّ) تختبر معلوماتها عن الألمان أم أنها بالفعل تحتاج إلى معلومات . . ؟ وهل هذا سيفيدها في قرارها الذي يجب أن تتخذه من أجل مستقبل ابنتها . . ؟ أم أنها تضيِّع الوقت، وتخفِّف من سخونة الحوارات التي قد تُوقِعُها في حَيْصَ بَيْصْ . . ؟ لا تدري .

بذكائها المعهود تُنهي المكالمة . . وتستأذن لتستعد لحضور حفل اتحاد الكتاب لحصولها على جائزة أحسن رواية هذا العام . ومعها آخرون حاصلون على جوائز القصة والشِّعر والمسرح والنقد كتقليد جديد يتبعه الاتحاد لأول مرة . وهو تكريم أعضاء الاتحاد الحاصلِين على جوائز في الإبداع، حتى ولو كانت هذه الجوائز ليست عن الاتحاد نفسه . . أخيرًا بدأ الاتحاد ينتبه لدوره تجاه أعضائه وأهمية هذا الدور . في حين بُحَّ صوتها، وصوت رئيس لجنة الرعاية الإنسانية، ولجنة الحقوق القانونية، من أجل أن ينهض الاتحاد لحماية الشاعر إبراهيم رضوان شاعر المنصورة المعروف،

والوقوف بجانبه في قضية جُنحة مرفوعة ضده، من قِبَل مواطن عادي امتدح مايكل جاكسون في برنامج تليفزيوني، وقال عنه إنه مثله الأعلى. وعندما عاب إبراهيم رضوان على الإعلام المصري نَقْل هذه الصورة عن شبابنا – من خلال إحدى الصحف – رفع الشاب قضية عليه أرهقتْهُ وزادته مرضًا على مرضه ولم يتحرك الاتحاد قيد أنملة. .

متضررةٌ ومتباطئةٌ تشدُّ رحالها متجهة نحو اتحاد الكتاب الذي لا يجذبها للذهاب إليه سوى رؤية الأصدقاء الحميمين القليلين جداً.

* * * *

(١٦)

روما العظيمة

بين ماركيز وغوغول وجبراييل مارسيل وبرنارد شو تتنقّل (مَيّ الشوربجي) وتقضي أحلى لحظات حياتها وأسعدها. . تهْنَأ بخُلْوتها بين القراءة والكتابة. تشعر بأنها كمنْ نجا من الموت حالاً. . تلتزم الصمت في معظم أوقات النهار، إلا إذا اضطرتْ إلى الرد على أحد أفراد أسرتها أو تلبية دعوة إحدى صديقاتها للخروج معها للتنزه. . وهذا نادرًا ما يحدث. . كثيرة التأمل في الوجوه والأشياء فالتأمل بالنسبة لها حالة من الكشف لا تتوفر للكثيرين ممن يتسرعون في الحديث أو يتورطون فيه رغمًا عنهم. . لقد أصبحتْ على قناعة تامة بل مُطْلَقة بأن الصمت والتأمل سمة العباقرة، بعد أن اكتشفت ذلك في كل الروايات التي قرأَتْها مؤخرًا، والتي صنعتْ أصحابها بحق، وفي آراء الفلاسفة الوجوديين وغير الوجوديين، والمفكرين بشتَّى أنواعهم واتجاهاتهم. . . يومٌ كامل من الصمت والبوح بحِبْر القلب على ورق الروح المفتون بها وبحبها له. . . على مدى يوم كامل لمْ

تستطع أصوات الأغاني الشبابية، أو الأجنبية، التي تصدر من حجرة ابنتها – بشكل فوضوي – أنْ تخرجها من عالمها. ولمْ تستطع طلبات الأبناء المتتالية والكثيرة أن تفسد عليها خلوتها، فأنجزتْ الفصل قبل الأخير من الرواية. ولهذا قررتْ أن تكافئ نفسها بصوته، وبعد مَسَاعٍ كثيرة فاشلة في الحصول عليه وجدتْهُ:

– تليفونك مشغول. . . . !!

– أنا آسف جدًا. .

– بدون أسف. . ولكن. . .

– لكن ماذا. . . . ؟

– نسيتْ. . كان هناك شيء ما أريد التحدث فيه. . لكنني نسيته الآن. . .

– أكان هناك موضوع تريدين التحدث فيه، أم سؤال تريدين أن تسأليه. . ؟!!

– ماذا تقصد. . ؟

– هناك سؤال على طرف لسانكِ. . أُحِسُّهُ الآن.

- وأنتَ . . أتريد الإجابة عليه . . ؟!

- طبعًا . . وهل سأخاف منكِ . . .

يا سيدتي هذه كانت صديقة قديمة . . ومنذ أربعة شهور لم نتحدث . .

- وما الذي منعكما من الحديث منذ أربعة شهور . . ؟

- لقد عادتْ من السفر لتوِّها، فاتّصلتْ بي قائلة : (أنا لسّه واصلة فـ باكلمك أهو يا نَدْل) فهي صديقة مقرّبة جدًا لي ومن القليلين الذين أثق فيهم . . .

- وماذا تعمل هذه الصديقة؟

- لا شيء . . لأنها ماديًا مُستريحة جدًا، ومكتفية إلى حدِ التُخْمَة . . أبوها ملياردير . . أميرة بنت أمراء .

- كاتبة . . ؟

- تكتب ولا تنشر . . .

- ماذا تكتبْ . . ؟

- قصيدة نثر من الحلوة جداً . . وأخيراً أقنعتُها بأن تُصدِر كتاباً . .

- صِفْها لي . .

- الجميل فيها إنها شخصية راقية ، والحياة الناعمة لم تصنع منها إنسانة تافهة أو سطحية أو أنانية . . هي غالباً إنسانة مُريحة .

- من أين تخرَّجتْ . . ؟

- خريجة الجامعة الأمريكية . .

- ولماذا سافرتْ . . ؟

- يا سيدتي هذه الإنسانة السفر عندها مثلاً لأن صديقتها في باريس وحشتها فتسافر إليها دون أية مشكلة ، وتظل معها لمدة يومين . . ثم تطير إلى فرانكفورت لصديقتها الثانية ، ثم إلى سورية وهكذا . . . الحياة عندها بسيطة وسهلة ، وليست معقَّدة .

- إذن هي مِمَّنْ لديهن فراغ كبير . . .

- فعلاً . . هي عندها فراغ . . لكن أحيانًا تنْشَـط لـديها مشروعات قراءة لأنها مثقفة . . إلا أن هامش الحرية الذي حصلت عليه يتيح لها فرصة الانعزال عن العالم إذا أرادت . . فالأمور كلها في يديها ، تفعل ما تريد وقتما تريد . . وأنا الوحيد الذي تلجأ إليـه وقت الشدائد أو في حالات الاكتئاب . . . إلخ .

- وماذا بعد . . ؟

- ماذا بعد . . ! ! . أنا عندي إحسـاس بالاسـتجواب ؛ وبأن المتحدث معي يستطيع استخراج كمٍّ هائل من المعلومات عني وعمَّن حولي . . وأنا لا أحب ذلك . .

- أنا آسفة . . لم أكن أقصد سوى سماع صوتك لأكبر فترة ممكنة . . ثم إنك أخطأتَ في فهم أسئلتي . .

- يا حبيبتي الفضول شيء إنساني جدًا ، وموجود لدينا جميعًا . . وأحيانًا تكون هنـاك عنـاوين كـبيرة أمامنـا نريـد معرفـة تفاصيل عنها . . ما رأيك في هذه الأغنية . . الشاب خالد في أغنيـة عبد القادر . . أنا أعشقها جدًا . .

- سأتركُكَ تسمع الشاب خالد والشاب تامر وكل الشباب الذين في الدنيا . .

- اسمعي . . هل يمكن أن آخذك في حُضني وأ قَبِّلك . . ؟

- لأ . . . لأ . . . لأ . . .

- (ذنبك على جنبك) لا بد أن تعلمي أنَّك لو سمعت كلامي سوف ترين ما لم تره امرأة قط . . وبعد ذلك سيحاولَ الكُتَّاب والمؤلفون إيجاد لغة جديدة للتعبير عنه، لأنه لم يَقُلْهُ ولم يكْتُبْه أحدٌ من قبل .

- لقد قلتُها وانتهى الأمر . . لأ . . يعني لأ . .

- كفاك تمثيلاً لدور الحارس العجوز الذي يقف أمام العاصفة . . أنا بالفعل في حاجة إلى أنْ أحس ملمس جلدك، وأشم رائحتك، رائحة جسمك الطبيعية، لا رائحة البرفانات، وأشعر بأنك شيء جميل يضع علاماته وبصماته على جلدي، وهذا مهم جدًا في إحساسي بك . . أنا متأكد من أن ذلك سيكون خنجرًا أو رُمحًا يخترِق طيات أمواجي . . وقتئذٍ لو سافرتُ إلى أي مكان لمدة

أسبوع أو حتى لمدة يـوم واحـد؛ فسـوف تكتشـفين أشـياءً غريبـة ورائعة تربطني بكِ . . وأؤكد لكِ أن هذه ليستْ رفاهية ولا اختيار وإنما هو احتياج . .

كانت (مَيّ) تستمع إلى كلماته التي تنزل في قلبها مباشرة نزول الموسيقى على جسد مُتعب فيرتجف ارتجافة المتراقص طربًـا – كمـا يحلو له أن يصفها هيَ – تحتضن قطتها السِّيامي البيضـاء وتـروح في غفلة سعادة. لا تدري كم من الوقت مضى على هـذه اللحظـات مستمتعةً ومتسائلةً: هل يمكـن أن تـتغير نظرتهـا للحيـاة وللنـاس وللرجال بشكل خاص . . ؟ هل يمكن أن تشعر بمشاعر أخرى غـير العطف والشفقة والحنان والأمومـة والصـداقة والأخـوة . . ؟ هـل استطاع أحد الرجال الأذكياء أن يسلبها عقلها المتـزن الوقـور . . ؟ وأن يتجول بين شرايينها سـابحًا في دمائهـا . . ؟ هـل مـن حقهـا أن تستجيب لإحساس رقيق كهذا . . ؟ الاحتياج شـيء طبيعـي عنـد البشر . . وهو يحتاجك فهل تحتاجين إليه . . وهل مـا تشـعرين بـه الآن شيء حقيقي . . ؟

أحستْ أنها وقعتْ في فخ تتسع دائرته ويتزايد عمقه كل دقيقة عشـرات المـرات . . ظلـتْ تـردد أسـئلتها الكـثيرة حتـى في أثنـاء

انشغالها بالأمور المنزلية وواجبات الزوجية. ترتب الملابس وتطهو الطعام وتغيّر الملاءات فهي لا تؤمن بوجود شغّالة أو مديرة للمنزل، طالما هي قادرة على القيام بدور الزوجة والأم..

يدخل (محمود) وهو يحمل عدداً من الأكياس المنتفخة وكأنه اشترى كل ما في سوق الخضار، وكل ما في سوق الفاكهة، وبعض الزينات لعيد ميلادها.. تفكر (مَيّ) في أن توجِّه الدعوة له، لحضور عيد ميلادها.. ولم لا.. مثله مثل غيره من الزملاء والأصدقاء الذين سيحضرون ليحتفلوا بها.. لا تدري إن كانت بهذه الدعوة مذنبة أم غير مذنبة..؟ صائدة أم مُصطادة..؟ غالبها شعورٌ بالصمت الرهيب.. لمْ يخامرها شكٌ في قبوله الدعوة.. ومع ذلك ظلتْ واجمة طوال اليوم.. انتظرت لمدة ثلاثة أيام كاملة كي يتحدث إليها تليفونيًا كما كان يفعل ولكنه لم يفعل.. اعتقدتْ أنه مريض أو يعاني من أزمة ما.. اتصلت به.. ليس موجوداً في المنزل. اتصلت به في العمل.. أحست أن الأربعين شخصًا العاملين في السويتش يعرفون صوتها، ويعرفون أنها تطلبه تحديداً من قبل أن تذكر اسمه. تعاملت مع عامل السويتش الذي ردَّ عليها بخبث ومكر لأنه كاد أن يشتبك معها في حديث طويل؛

لإعجابه بصوتها . همستْ فيما بينها : (حتى أنتَ يا بروتس) . تملصتْ منه بالكاد بعد أن وعدتْهُ كذبًا – مضطرةً – بمكالمة أخرى بعد ساعة ولم يحدث طبعًا . . كثيرًا ما تفعل ذلك . . عندما عاد إلى منزله بين أذانيِّ المغرب والعشاء طلبته هاتفيًا ، وبلهجة الواثق من نفسه قالتْ :

– أنسيتَ موعدنا . . ؟ أمْ أن شيئًا حدث فلم تحضر بسببه . . ؟

– موعدنا . . شيء غريب . . أي موعدٍ هذا . . ؟

– لقاؤنا اليوم . .

– الحق أقول لكِ . . استطعت أن تُجنني . . صحيحٌ أنني كثير النسيان . . ولكن ليس لهذه الدرجة .

– سأراك الآن . . بعد نصف ساعة بالضبط سأنتظرك في الريسبشن ، وأنتَ ستوافق فوراً . . هذا هو الموعد . . لن تعترض .

قبل أن ترتدي أشيك فستان لديها ، أخذت حمَّامًا دافئًا ، خرجت من تحت قطرات مائه ورغوة الشامبو الناعمة كالحرير لا تزال تداعبها . . وضعتْ أرقَّ المساحيق وكادتْ أن تغرق نفسها في

زجاجة العطر، وارتدتْ حذاءً ذا كعب عال ليزيدها طولاً . . نظرتْ إلى كل التماثيل المنتشرة في بيتها، تأكَّدتْ من أنهم جميعًا عميان لا ينظرون إليها ولا يترصدون تحركاتها . . نظرتْ إلى صورتها الكبيرة جدًا المعلقة في الصالة ونشرتْ عليها أكبر منشفة لديها، لإحساسها بأن هذه هي العيون الوحيدة التي تراها وترصد تحركاتها وتكشف نيَّاتها . . كان سلوكها هذه الليلة مختلفًا جدًا . . صحيح أنها لم تبالغ في ملابسها ولا مساحيق تجميلها، لكنها تتصرف كفتاة بنت ١٤ سنة .

لاحظت ذلك ابنتها الكبرى (رشا)، فداعبتْها بكلمات شبابية، وغازلتهْا مغازلة الرجال، وغمزتْ لها بطرف عينها وحاجبها وقالت: (أيوه يا عم على فين العزم) حتى أنها اندهشت من نفسها للحظة واحدة، وعادتْ تستكمل ارتداء الحذاء وهي جالسة على كُرسيٍّ، علَى غير العادة، تأملتْ ساقيْها في الحذاء ـ على غير العادة أيضًا ـ انطلقت كالسّهم . لم تركب سيارتها، فمبنى الجريدة التي يعمل بها قريب من الزمالك . وفي لمح البصر كانتْ في البهو الأنيق المعد لاستقبال الزوار . . لأول مرة ترتبك عندما سألها موظف الاستقبال عن اسمها . . صحيحٌ أنها لم تنشر

صورتها كثيراً في الصحف والمجلات لكنها معروفة الاسم . . ردَّدتْ في عقلها (مصيبة لو صمَّم أنْ يعرف اسمي) ولم تَرُدّ على سؤاله ، فقط طلبت منه أن يبلغه بوجود إحدى صديقاته وهي في انتظاره . . لأول مرة تخفي اسمها عن موظفي الاستقبال في أية جريدة ذهبتْ إليها . . وخاصة في هذه الجريدة فوجهها مألوف بالنسبة لهم ؛ لكثرة ترددها على المبنى لأسباب أخرى . . كانت تتفاخر باسمها وهي صاعدة لأحد الرموز هنا أو هناك طلبًا للنشر أو المشاركة في الأنشطة الثقافية ، أو غير ذلك . . لمْ تعدْ لديها تلك الجرأة لذكر اسمها للموظف . . تركت تحليل موقفها جانبًا ، وانشغلت بشكل اللقاء ، بشكلها المختلف هذه الليلة . . فقد ألغتْ كل مواعيدها فجأة ، وانسحبتْ من الحياة كلها ، وتملَّصت من الفكوك الكثيرة التي تحاصرها يوميًا . . أحسَّتْ أنها هربتْ منهم في أروع لقطة في فيلم الهروب الكبير . . تعمدتْ أن تكشف رُكبتها الشمال من فتحة الفستان . . دقائق معدودة ثم رأتْه أمامها . لم تستطع أن تخفي إعجابها به . كما لم تدَّخر الكلمة التي يُفتتها ردُّه عليها :

– وحشتني . .

- وأنتِ أيضًا وحشتيني.

لم تدرِ إنْ كان خجولاً.. أم متأملاً جيداً في صمت العائدين من سفرٍ طويل.. أم رزينًا يستجمع أفكاره ويجهز المفردات المناسبة لهذا اللقاء.. لا تدري. ظلت لدقائق تنتظر منه كلمة واحدة.. لمْ ينطقْ.. فقط بدتْ على وجهه علامات الاندهاش. كان مبهوتًا وقلقًا، عيناه الناعستان إلى حد ما، ورائحة عرقه – الممتزجة بالبرفان – والتي اشتمتها لأول مرةٍ دوّخوها، وأرغموها على فتح مجال للحديث كي تكتمل سعادتها بصوته ذي البحّة المميّزة:

- هل سنجلس هنا كثيراً..؟

- وأنتِ.. كما رتَّبتِ هذا الموعد مع نفسك بالتأكيد تعلمين ماذا سنفعلَ... كَمْ من الوقت معكِ...؟

(مَيّ) قرّرت – فجأة – أن تجيب إجابة غير متوقعة لكي تلاحظ ردَّ الفعل على وجهه. فعبر الهاتف لا تظهر علامات الوجه في مثل هذه الحالات، وألقْت إجابتها السخيفة وبصوت مفعم بلهجة التهديد:

- سأمشي حالاً . . ليس لديَّ وقت .

- أمعقول هذا . . وفيم أتيتِ . . وفيم تذهبين . . ؟

- مجنونة . . أليس كذلك . . ؟ كل الحكاية تتلخص في رغبتي في رؤيتكَ وقد حدث ذلك ورأيتك، وانتهى الأمر . . سأمضى حالاً . .

هو أيضًا استقبل تصرفها هذا بدون إلحاح على بقائها . فقط طلب أن يرافقها – من باب الذوق العام – إلى التاكسي وهي لم ترفض . . .

أحستْ بصدمة خفيفة . حبستْ أنفاسها الصاخبة ولم تنطقْ بأي بنت من بنات شفتيْها . تملَّكها شعور أرملة (لويس غالان) المغتال قائد ومؤسس حركة الليبرالية الجديدة في العالم، وأقوى شخصية في تاريخ حرب العصابات الدولية . . لكنها لاذت بالصبر والتصميم والتحدي . .

كالفراشة خرجت من بهو الجريدة الذي أصبح أكثر اتساعًا هذه المرة . أو أكثر ضيقًا وعتمة، فلم تر اللوحات والألوان كما لم ترَ الأضواء التي تزيِّنُهُ ككل مرة . . لقد أُصيبتْ بالعمَى المفاجئ،

إلى أن اقتربت من موظفي الاستقبال في اتجاه البوابة الرئيسية . . وكمن يرى شيئًا بعيدًا جدًا لاحظت أنهم ينظرون إليها بشيء من التدقيق والتركيز، وينظرون إليه أيضًا بنفس التدقيق والتركيز . . ألأنه يحتل موقعًا مرموقًا هناك . . ؟ أم لأنه معي . . ؟

عند أول درجات سلم النزول إلى خارج المبني جاءها تيار بارد، أبرد من تيار المكيف المركزي الموجود بالداخل . . تيار بارد قطعَهُ عليها إحساس دافئ جدًا، وصل إليها عبر اصطدام ذارعها الناعم بشُعَيرات ذراعه، بطريقة عفوية أو غير عفوية لا تدري . . تذكرتْ نفس الحركة في أول لقاء بينهما . . نظر كل منهما إلى الآخر في وقت واحد . سألها بطريقة السؤال الإجباري في ورقة الامتحان وأعقَب السؤال بإجابةٍ إجبارية :

– من أين ستركبين . . ؟ من التحرير . . ! ! ليس هناك فرق . . كل الطرق تؤدي إلى روما، ولكن هل ستأتي روما إلينا مرة أخرى . . ؟

لمْ يعد هناك ما يمكن قوله . . أرادتْ التظاهر بعبقريتها في التجاهل لحالة اليأس الكامل التي اشتعلتْ بين ضلوعها الآن، والتي أرسلتها من قَبل في نفسه هو . الآن، ظلتْ تعاني من أزمة

كآبة لازمتها حتى ميدان التحرير، وخاصة عندما قال لها أنه لا يحب المشي الكثير، وأن الـ (فلات فوت) في قدميه يؤلمه بسرعة وأنه يفضّل أن يزداد وزنه على أن يمشي كثيرًا في هذا الزحام المزعج . .

كانت الساعة قد اقتربت من العاشرة والنصف مساءً، والقاهرة تنفض غرباءها عن جسدها إلا هو . وتحتضن أبناءها داخل أعشاشها . . ألم يسمع هذا الرجل عن زحام القاهرة في تمام الساعة الثانية والنصف ظهرًا . . ؟! ألم يشتبك مع هذا الزحام لمرّةٍ واحدة . . ؟! إذن أين الزحام الذي يتحدث عنه الآن . . ؟!

عندما عادت إلى منزلها كان في انتظارها عبر الهاتف :

- محدثتكم من روما يا أفندم . .
- كنتِ ترتدين فستانًا رائعًا جدًا اليوم . .
- الفستان . . ؟!
- تعلمين جيدًا أنني مقتولٌ بما يحتويه الفستان .
- ومن أين لي أن أعلم ذلك . . ؟

– صحيحٌ . . من أين تعلمين ذلك . . يا قلاع روما الحصينة، يا ليتك معي الآن . . كنت أعرفك من أين تعلمين ذلك لحظة أن أفترسك .

– أصبحتُ أخاف منكَ . .

– لكنها الحقيقة . . الحقيقة التي صارحتُك بها منذ البداية . . أنا بالفعل قتيل روما . . أتمنى أن أزور روما ولو مرة واحدة . . أدفع عمري كله لأنام على العشب الأخضر في حدائق روما، وليحس خدي بوخز عُشب روما، ولأدُقّ بعنف على آخر قلعة في روما، عمومًا . . أنا طويل البال . . وسيأتي اليوم الذي أكسِّر فيه ضلوع روما . .

أطلقتْ (مَيّ) تنهيدة جميلة أشعلتْ ما أُخمد بها منذ نصف ساعة تقريبًا . وعبر تنهيدته المقابلة جاءتها نغمات أروع مقطوعة موسيقية تعشقها إلى حد الجنون "Love Story" . . أبناؤها يلتفون حولها كالعادة . أشارتْ إليهم في هدوء إشارة فهموا منها أن يبتعدوا الآن . . فابتعدوا . . سألته في وقار محاولةً إخراجه من هذا الجو الرومانسي الذي يذكِّرها بعمر بن أبي ربيعة وامرئ القيس :

– لماذا أشعر بأنك خجول في الواقع وجريء جداً على الهاتف . . ؟

– دائماً أكون منطلقًا كلما أحسستُ بخصوصية . . وأرتبكُ جداً كلما شعرت بالعمومية أو بتلصص الآخرين عليَّ . . وهذه مسألة نفسية أكثر منها اجتماعية . . وجود طرف ثالث حتى لو كان غريباً لا نعرفه ولا يعرفنا يصيبني بالتوتر . . لكنني متأكد من أنك ستجدينني – في خلوتنا – أكثر تلقائية ، سأداعب شَعرك الذي يأسِرني لونه وطوله . وأشم رائحة جلدك ، سأتحرك بحرية بين دروبك ، وأبوابك وشبابيكك بدون قيود . وقتئذ ستكون روما الحصينة شاهدة على أكبر حدث في تاريخ العالم . ً أنا متأكد من أنك تشعرين بروما جيداً الآن . .

انسابت إلى مسامها رعشة لطيفة . وشعرتْ بارتفاع في درجة حرارتها . . بالتأكيد ليس السبب في ذلك ارتفاع درجة حرارة الجو . . فالليلة تشبه ليالي الصيف اللطيفة تمامًا . . أضمرتْ إحساساً آخر بالخفة والرشاقة ، وكأنها قد نبت لها جناحان تقود بهما سرب حمام أبيض يطير الآن محلقًا في الآفاق ، ليحط على

شاطئٍ مجهول الهوية، مجهـول المكـان والزمـان. يمكنهـا أن تصـفه بشاطئٍ الوجهاء خبراء الفن فيما فاجأها:

- متى سأركِ...؟

- لقد أعطيتكَ فرصة عمركَ.. وأنتَ ضيَّعْـتَها.

- دائمًا تفهميني خطأ.. أنا أقصـد متـى أراكِ وحـدنا بدون شركاء.. بدون طرف ثالث.

- لماذا..؟

- أريد أن أقرأكِ قراءة متأنِّية. أقرأ سطورك وحروفـك وملامحك الحقيقية بدون ماكِياج، تلـك الـتي تخفينهـا متعمـدة ولا تبدينها للناس.. ثم إن المشكلة ليست في متى وحدها وإنما المشكلة في متى وأين..؟!

أرسل صمتُها سـؤالاً يطلـب تفسـيرًا.. قابلـه هـو بضـحكة خفيفة تمنّتْ لو تراها لتعرف ما وراءها.. أعقبها بقوله:

- فكرتي العامة تقول؛ لو كنتُ قاهريًـا لكنـتُ في هـذه الحالة أستطيعِ إدارة هذه المواقـف المكانيـة.. لأنـني حقيقـةً لـديَّ إحساس بأنك أنتِ بلاد طيبة، وبلاد طيبـة لابـد أن أتعامـل معهـا

بشكل مختلف يحفظ لها كبرياءها وشموخها ولا ينتقص من تاريخها أبداً . . ولا من هيبتها . . .

لأول مرة تنام (مَـيّ) بملابـس الخـروج . . وعنـدما اضـطرتْ للاستيقاظ في منتصف الليل على صوت طفلها الذي يريدها أن تنام بجواره، أو لأنه يطلب شيئًا ما فهي لم تركـز معـه جيـداً . . وأمـام الضوء الخافـت شـعرتْ بحاجتهـا إلى تبـديل ملابسـها، وشـعرتْ بسعادة بالغة عندما استأنفت نومها مكوَّمةً تحت الملاءة الخفيفة دون أن ترتدي كل ملابسها، مع أنها ضد هذا السلوك. شعرت بسعادة لمْ تعرفها من قبل رغم أنها كانت ليلة باردة إلى حد ما . . بعدها لمْ تنمْ دقيقة واحدة، وكأنَّ قلبها مُنبِّهٌ صغير دُسَّ بين ضلوعها، مُنبِّـه صغير حقًا لكنه يدق بأسرع ما يمكن، ويدق ليوقظها كلما راحـتْ في غفوةٍ للحظة أو لحظتين . .

ظلت مضطجعة في مكانها حتى تسرَّب إليها ضوء الفجر الذي أعطى شكلاً مختلفًا للحجرة . . ضوء الفجر ـ الداخل من فتحـات ستائر الشيش حصير ـ رسَمَ خطوطًا غير ملوَّنة على الحوائط وعلى الملاءة وعلى وجه قطتها السِّيامي البيضـاء، والـتي همَّـتْ لتـدخل بجوارها تحت الملاءة، فابتسمتْ لها ورفعتْ حاجبيها وكزَّتْ علـى

طـرف شـفتها السُـفلية بأسـنانها اللامعـة البيضـاء قائلـة لهـا : عيب . . !!

ثم حملتها بيديها الرقيقتين وتأملَّتْ عينيْهـا جيـدًا . وأرسـلتْ إليها قُبْلةً في الهواء ، هي قبلة الصباح التي اعتادت عليها . . وبكل عناية واهتمام وضعتهْا على الأرض لتنهض مـن رقـدتها وهـي في حالة من الخدر اللذيذ . . تكتشف أنها قضتْ تلك الليلة في حجـرة الأولاد ، فترتدي جلباب ابنتها الكبرى . متجهةً إلى المطبخ تستقبل يومًا جديدًا من أيام الشقاء المستمر . . لكنها كانتْ كسـولة جـدًا ، تتحرك ببطء شديد ، حتى أنها لم تبدِّل جلباب ابنتها حتى فترة مـا بعد الظهر . .

(فريدة) ابنة خالتها وزميلتها في الشركة تأتي كالمعتاد أكثر مـن مرة في الأسـبوع ، تطمئنهـا علـى أحـوال العمـل . . في هـذه المـرة أخذت (فريدة) نوبة من الضحك غير عادية لما رأت (مَيّ) بجلبـاب ابنتها . . ولأنهما توأمتان روحًا ومعنـىً لم تتركهـا كـثيرًا ينهشـها التعجـب والدهشـة مـن أمرهـا . . حكـتْ لهـا عـن كـل شيء . . . . . !!

* * * *

(١٧)

ذكَر النَّحل

قنطار من الحب ـ سوف تسميه هكذا ـ قنطاران، ثلاثة، عشرة قناطير صُبَّتْ عليها بلغة بالغة الرقة والنعومة رغم شراستها، لغة حنين شريرة، رومانسية ذات مسحة حسِّيَّة لا تفقدها جمالها ورونقها ونعومتها، الحسّ المغسول بماء الطَّهارة والعفَّة، الحسّ المعطَّر بماء الفل والياسمين. لغةٌ ممزوجةٌ بالأحلام الطازجة، يلَقيها في وجهها كباقات الورد حين تُلقى في فضاء جاف، أو في قلب خزينة مقفلة بأقفال حديدية منذ أعوام طويلة، لغة عادية تفرض نفسها على الحوار بين كل اثنين رجل وامرأة، ولكن بشكل مختلف... كان يهش عليها بريشة من ريش النعام لا بعصاه. يهش عليها بسنبلة من سنابل الحنانً والعطف.. كان يمر بصوت اللهفة على وجه امرأة كانت قد انحنتْ على أزمانها فقط؛ لتوليها حق الرعاية وبرغبتها الخاصة جداً كانت قد أعطتْ أوامرها لكل مكامن الإحساس لديها بالتوقف تمامًا عن الضَّخ. وكانت قد خصَّصتْ حُرّاسًا بملامح مبالغة في الجَهامة، خلفهم حُرّاس آخرون

مُدججَّين بأسلحة حديثة، يتربصون لأية عاصفة ويمنعونها من الدخول إلى خزانتها الحديدية، أو حتى مجرد الاقتراب من حصنها المنيع الذي تحمله بين جنباتها جيئةً وذهابًا. . قليلٌ من الطعام كان يكفيها للاحتفاظ بحيويتها ونشاطها، وروحها المرحة إلى حد ما. . لتترك عند أسرتها وعند كل من يشاركونها طعام الحفلات وغداء أو عشاء العمل كثيراً من الدهشة. . .

قليلٌ من النوم أيضًا كان يكفيها لتواصل العمل والسهر ثلاثة أيام متصلة، فتستعصي عليها الراحة بعد ذلك، فتسلم نفسها لنومٍ عميق لساعاتٍ أخرى قصيرة. .

لم تؤثر الحالة الجديدة التي تمر بها (مَيّ) على نظام حياتها الدقيق، ولا على نظام عملها الذي اضطرتْ إلى العودة إليه بعد عام كامل من الأجازة، اشتاقت فيه إلى ضجيج الشوارع وأصوات أبواق السيارات، وإلى صخب مكاتب الشركة، واشتاقت فيه إلى مداعبة ساعي مكتبها الذي يزيد عمره على الستين. .

عادت إلى العمل لكي تنشغل عنه. صحيح أن المغامرة تغريها، وعمق الجسارة التي تتمتع بها يحفظها، ويخلع عليها سياجًا من الهيبة لا يجرؤ أحدٌ على انتهاكه. ولكنها أرادت أن

تخترع أسلوبًا يليق بهذا (الزَّنان) سوف تنسَى أرقام هواتفه، وتمحو شكله وقوامه وملامح وجهه من ذاكرتها. سوف تشطب زمنه، مواعيد تواجده في العمل أو في المنزل بقلم فلوماستر أسود عريض. سوف تغيِّر هي الأخرى من نظام وجودها في المنزل كي لا يَعْثُرَ عليها في أي وقت. وها هي أول خطوة في هذه الخطة، عودتها إلى العمل. ستجعله ينساها بطريقتها الخاصة. ستغيِّر شكلها وملامحها، ستجعله لا يعرفها حين يراها ـ قاصدًا أو بغير قصد ـ ستصبح شيئًا آخر لا يُرى، فتذهب إلى العمل وإلى الندوات وتعود عبر الهواء دون أن يراها. قد تصبح أوكسيجينًا أو ذرات أو رائحة. المهم أنها تراهن الآن على النسيان الكبير... ولكن:

- يبدو أنني سأخسر الرهان.

في منتصف شهر سبتمبر تحديدًا (رشا) منهمكة في لعب الشطرنج مع خالها (محمد)، وأخواها الصغيران منهمكان أيضًا في اللعب بحجرتهما، ومن آن إلى آخر يظهران في الصالة وبين الحجرات مهروليْن وراء بعضهما يلعبان الاستغماية، هذه اللعبة تعشقها (مَيّ) جدًا، لذلك يحلو لها أن تراقب أبناءها وهم يلعبونها، رغم أنها هي الأخرى منهمكة أمام الكمبيوتر بتخزين

المعلومات، وكتابة أعمالها الإبداعية بنفسها قبل أن تدفع بها للمطابع، تراسل أصدقاءها عبر الشبكة العنكبوتية العبقرية الإنترنت، تطَّلعُ على أحدث ما وصل إليه العالم في مجالات الدعاية والإعلام والإعلان كي تستطيع تطوير شركتها، ومواكبة حركة التقدم والطفرة العالمية التي حدثتْ في هذا المجال، وقد تُرفِّهُ عن نفسها فتستخدم الكمبيوتر في ممارسة إحدى اللعبات وقت الفراغ. . .

(محمود) في عزلته المعتادة مع التليفزيون الذي أدمنه وأصبح مهووسًا به، فلا يشعر بانفلات الوقت منه حتى قبيل الفجر، رغم أنه يصحو مبكراً متجهًا إلى عمله كصاحب مصنع ملابس. فجأة يصيح صَيْحَةً عاليةً تفزع البيت كله:

- أخيراً إسرائيل سحبت جنودها الميليشيات من جنوب لبنان. . عُقبال فلسطين، أيوة عُقبال فلسطين.

(رشا) تؤكد علَى خالها أن يذهب معهم إلى المصيف هذه المرة. فقد ذهبوا وعادوا خلال هذا الصيف أكثر من مرة، وهي تريده معها لأهمية ذلك في تنمية العلاقة بينه وبين (إبراهيم) أو (مستر كول) سابقًا، والذي سافر إلى ألمانيا منذ شهر يولية الماضي

لزيارة أهله في مدينة فرانكفورت بالقرب من نهر الراين وسيعود بعد أيام. فنجاحها في الثانوية العامة بمجموع كبير يؤهلها لدخول كلية الألسن القسم الألماني رجَّح كفتها وكفة (إبراهيم) عند الجميع، ممّا عزّزَ موقفهما وأتاحَ لها فرصة النقاش مع والديها حول زواجها منه، وعندما ضيّقت الخناق على قضيتها، وأثبتت لهما مدى إيمانها بهذا الرجل، وبأهدافه النبيلة في الحياة اضطرتْ العائلة إلى قبول مبدأ الخطوبة فقط، إلى أن تتضح الأمور أكثر وأكثر ويثبت (إبراهيم) أنه على قدر المسئولية..

ذكرتْ (رشا) أن (إبراهيم) سيعود من فرانكفورت بصحبة أخته الوحيدة (برجيتا) التي حاولتْ بقدر المستطاع إصلاح العلاقة بين (إبراهيم) ووالديه، ولم تفلح، فتنكروا لها، وطردوها، فأرسلتْ إلى أخيها ليأتي ويأخذها معه إلى القاهرة؛ بعد أن ساءت علاقتها هي بأهلها بسبب هذا الموضوع.

في المصيف لمْ تنعتقْ (مَيّ) من المكالمات الهاتفية الساخنة. تساءلتْ: كيف استطاع هذا الرجل أن يجدها رغم محاولاتها لإخفاء نفسها عن الحياة كلها لكي ينساها..؟ لا تدري..!!

- انتبهي جيداً . . ألا تخافين على " طيرك " إذا لفَّ على غيرك . . . . . ؟

- وإذا كان طيري لم يلف عليَّ أنا للآن . . . . ؟؟!

- أنا أُدين الظروف التي منعتني إلى الآن من شرب ماء النبع . . . لقد حاولتُ . . !!

- وبعد الإدانة . . ؟

- الثورة . . وأنا عند ثورتي أكون وحشًا مفترسًا . .

قال لها أنه منذ السلام الأول عليها باليد فإنه لم يسترد روحه، وأن جمرات أصابعها لا تزال تقوم بدورها الشرير في حرْق أصابعه، وأنه لا بد له أن يقتصَّ منها قصاصًا لا بديل عنه، فيجعل جمراتها ترتد عليها. سوف يُشعل الحريق في جسدها كله وليس في أصابعها فقط . . تعجبتْ من التعبير، فقد تعوّد الشُّعراء والكُتَّاب أن يتفاخروا بإشعال الجليد. أكَّدَ لها أن هذا الجسد ليس جليداً، وإنما هو حريق مشتعل يحتاج إلى المزيد والمزيد من النيران . . باغتتْهُ بالسؤال :

- إنت بتعمل بحث عن الجسد واللا إيه . . ؟

- أسوأ شيء في الدنيا أن تعرف مثقفة ! !

- لماذا . .

- المثقفات لديهن مشكلة حقيقية ، يضعن أنفسهن فيها بدون قصد . وهي مشكلة تمرير الأشياء والأفكار والمفردات بكثير من الأسئلة والاحتمالات والهواجس . . يشغلن أنفسهن بالتفوق الذكوري وصورة الذات في كذا وكذا . . إلخ . أين المرأة العادية التي تنتمي بأنوثتها الحقيقية إلى اللحظة النارية . المرأة التي لا تفسد تلك اللحظة بالوعي وبالذهن وبالتساؤلات الكثيرة . . المرأة التي يجتمع فيها الندى والنار معًا في لحظة واحدة . . . آه . . آاااااااه من المثقفات الـ"So Cold" . .

- ماذا تقصد؟ باردات . . ؟ !

- أنا آسف . . كولد هنا تعني Called أي الفعل + ed بمعنى المزعومين أو المزعومات . . قد تكون الكلمة قريبة من Cold في النطق لكنني لم أقصد مطلقًا المعنى الذي وصلك . . أعود لموضوعنا . . . أنا والحمد لله وهبني الله صفة الفراسة التي أستطيع من خلالها معرفة جوهر وروح الشخصية التي أمامي منذ اللحظة الأولى ، بل من أقل الكلمات ، حتى وإن كان في وقفةٍ عابرة . .

المرأة تحديداً لا تأخذ في يدي أكثر من خمسة دقائق، لأكتشف فيها ما لم يكتشفه فيها الآخرون رغم علاقتهم الطويلة بها. وأنت بالنسبة لي كتاب مفتوح قرأتُهُ على عجل منذ اللقاء الأول، بل منذَ المحادثة الأولى، لقاءاتي العابرة بك كانتْ عبارة عن سنوات طويلة عشتُها معكِ بالفعل، لكنني أحتاجَ إلى قراءتك قراءة متأنية.. فمتى تمنحينني هذه الفرصة...؟

(مَيّ) تستطيع أن تستمع وتنصت في صبر جِمال الصحراء على العطش الطويل.. تتأمل كل حرف من حروف كلماته الموجَّهة ـ بقصد أو بدون قصد ـ نحو مفاتيحِ شخصيتها بل نحو مفاتيح أخرى بها. ولكنها في نفس الوقت تستطيع أن تغير دفَّة الحديث، كلما اقتربتْ، وكلما اقترب من أحد هذه المفاتيح ممسكًا به، ومحاولاً إدخاله في كالونه وقبل أول "تكَّهْ" تفاجئه بسؤال، فكثيراً ما طلبت منه نشر سلَبيات اتحاد الكتاب في الجريدة التي يعمل بها.. وزيادة في استفزازه تمنَّتْ أن تصبح صحفية، كي تفعل ذلك بنفسها دون الاحتياج له.. وها قد فعلتْها وفاجأتْهُ بسؤال جديد عن شاعرة صغيرة السن:

- ما رأيك في أشعارها..؟

- الحقيقة إن البنت استطاعتْ أن تُلخِّص فكرة جيل كامل. كما أنها لخَّصتْ مرحلة تاريخية في القاهرة عن الماركسيين واليساريين في قصيدتها الشهيرة (ماركس). وفكرة البنت التي جاءتْ من الريف إلى القاهرة وكلها طموح في نشر إبداعها فسلكتْ أكثر من سلوك للوصول إلى أهدافها.. هي تكتب شعراً يمكن أن نطلق عليه اسم (شعر الصراحة) وليس شعر الصورة المدهشة أو شعر اللغة الأنيقة.. هي لديها كلام منثور يولِّد الدهشة رغم عدم وجود أية رائحة (للمزيكا) فيه من قريب أو من بعيد.. أنا أعي تميُّزها جيداً لأنها لديها شيء تستطيع أنْ تبني عليه أشياء أخرى من داخل منطق منثور...

(مَيّ) تحمد ربنا أنَّه نَسىَ حديثَه السابق عن الأنوثة ومفرداتها، الحقيقة أنها لم تقصد إطلاقًا الدخول في تقنيات العمل الشعري عند تلك الشاعرة هذه أو غيرها.. هي تحاول تغيير دفة الحديث إلى أشياء مشتركة بينهما في الأدب بشكل عام، فسألته عن رأيه في شعر ملك عبد العزيز وسعاد الصباح وروايات لطيفة الزيات، وعن رأيه في شعر جماعات الجراد وإضاءة والكتابة الأخرى والأربعائيون الذين اختفوا ونصوص "٩٠" وبدايات القرن

وإصدارات كل منها . . فيتهمها بأنها ذات حس استخباري بوليسي مباحثي . ويصف نفسه بأنه يجلس الآن أمام ضابط الأمن في (لاظوغلي) في حجرة مظلمة إلا من مصباح ذي ضوء ضعيف يهتز فوق رأسه ذهابًا وإيابًا، وأعضاء البوليس السياسي يلتفون حوله، وكل منهم يفاجئه بسؤال . يطبقون عليه المنهج النفسي بالضغط على رأس السجين ومحاصرته ومفاجئته بـ (لماذا . . ؟) خاطفة وعاجلة وحاسمة ومركَّزة، لكي يرتبك دون أن يأخذ فرصة الثانية الواحدة لا الدقيقة للكذب أو المراوغة أو مجرد التفكير . . فاجأها أيضًا بمعرفته لما تفكر فيه وما تنوى التفكير فيه، وأنها تحاول ترويض الذئب الذي بداخله، وحذَّرها من استخدام العقلية الأمنية هذه معه :

- ممكن تعملي لي مساج . . ؟

- لأ . . إنت فاكر نفسك فين . . ؟!

- هذه هي أكثر مرة سمعتك تقولين فيها نعم . . فأنا أشعر بمدى تعطش هذه الأرض لماء نادر جدًا . أنت الآن أرسلت لي رسالتين : الأولى رغبتك فيَّ، والثانية تصريحك لي بها . أنا شخصيًا لا أستطيع التعامل مع الملابس الخارجية . . أنا مهمتي تبدأ

بعد ذلك . . أظن أن اللون الأسود على الشهد الأبيض من الممكن أن يصنع "Contrust" بديع جداً من الممكن أن يقتلني، أتصور الآن عبقرية المشهد وصوت النقرة الأخيرة قبل الشرب من النبع وقبل الموت.

- هذا مستحيل . . مستحيل . . . !!

لم يأبه بجملتها الأخيرة التي أطلقتْها حاسمةً قاطعةً، وكأنها قيلتْ على لسان رجل شرطة، يضرب بقبضته اليمنى على مكتبه بقوة، وبيده الأخرى سماعة الهاتف، وقد أخبروه بأن السجين السياسي الذي سيُعدم بعد دقائق قد هرب . . وخمسمائة ألف سؤال وسؤال يدورون الآن في عقله الذي سينفجر. خمسمائة ألف سؤال يخرجون الآن من رأسه مادِّين ألسنتهم له، متعمدين إغاظته. يراهم الآن بعينيه الواسعتين اللّتين ازدادتا جحوظًا في لحظة . .

لمْ يأبه بردِّ فعلها الذي جاء طبيعيًا، لأنه بالتأكيد لا يزال ينفذ خُطة (الزن على الودان أمرٌ من السحر) وأنَّ (طولة البال تبلّغ الأمل):

– حتى مستحيل هذه تعني في الحقيقة حاضر . . عامةً أنت تذكِّرينني بذكر النحل الذي يمارس الحب مع الملكة ثم يموت بعدَها مباشرةً . . نوع قليل جدًا من النساء يحاولن توصيل هذا الإحساس إلى الرجل، وأنه سوف يلقَى حتفه بعدها مباشرةً . . لدرجة أنه عندما تنساب يده بين ثنايا خصلات شعرها، ويلمس رقبتها وصدرها وخصرها، فإنه يحس رعشةً غريبة، ليست تلك الرعشة الشهيرة المعروفة لجميع البشر . وإنما هي رعشة الخوف والإحساس بالموت بعد دقيقة واحدة . وأنت تنتمين لهذه الفصيلة . . وهذا لا يتعارض معي إطلاقًا . . لأن قمةَ المشهد عندي مرتبطة بالموت، وقمة المشهد عندك يعقبها الموت . . إذن اتفقنا . . لمْ نختلف . . فهل تسمحين لي أن أبدأ بلمس شَعرِك . . ؟

نبَّهَتْه إلى أن أذان الفجر يؤذن الآن . . ولا يصح الحديث عن أي شيء آخر غير العبادة والصلاة والتسبيح لله سبحانه وتعالى . . فأجابها بنفس الأسلوب مؤكدًا أن هناك أشكال كثيرة للعبادة . . فالعمل عبادة، والله جميل يحب الجمال، والغزل ليس محرَّمًا لا محليًا ولا دوليًا . . بل إنه لم يقرأ في أي كتاب عن مفهوم ديني يحرِّم الغزل والحب، أو يحدد توقيتًا مُعيَّنًا لممارسة الحب والغزل .

كانت (فريدة) التي تزوجت (أحمد) محاسب الشركة منذ أسبوعين ـ كنوع من الرضا الإلهي عنها ـ قد اصطحبتْ زوجها إلى المصيف. وقبل أن تشرق الشمس كان الجميع يستعدون للحاق بهما إلى الإسكندرية التي تعشقها (مَيّ) لدرجة الجنون، ولا ترضَى عنها بديلاً كل عام.. لكنها في هذا العام تراها بعيون مختلفة..

الأبناء عادةً يسبقون الأب والأم إلى الشاطئ، حيث تنشغل الأم بإعداد الأطعمة التي ستأخذها لهم. لكن (مَيّ) لم تذهب في موعدها... (مَيّ) أمام المرآة ترتدي المايوه الأسود لأول مرة في حياتها، واقفةً أمام المرآة تتعرف على نفسها، وتكتشف أنوثتها المدفونة عبر السنوات، تتردد كثيراً بين ارتداء المايوه وخلعه، تتعرض لنزلة برد شديدة.

* * * *

(١٨)

لِقاءٌ أخِيْر

التاسعة والنصف صباحًا (رشا) تتناول الإفطار الثاني (بيض – لانشون – توست – مربَّى – زبد) بعد أن تناولت في السابعة والنصف صباحًا الإفطار الأول (كوب القهوة باللبن) تمامًا كما يفعل خطيبها، وكما يفعل الألمان عمومًا. . وفي المساء تجلس أمام التليفزيون واضعةً ساقيها مفرودتين أمامها على منضدة الأنتريه كعادته هو أيضًا. . تفكر فيه بشدة. .

كان قد وعدها بأن يأخذها معه لزيارة المدن العريقة بألمانيا مثل (ميونخ) مسقط رأسه، لترى درّاجته الصغيرة التي كان يذهب فوقها إلى المدرسة، والتي تقبع الآن كرجلٍ عجوز بين قطع الأثاث الضرورية جدًا؛ (سرير – دولاب – ثلاجة – مكتب – تليفزيون – غسالة) حيث لا يهتم الألمان باقتناء ما يزيد عن حاجتهم نظرًا لصغر حجم البيوت. . وعدها أيضًا بالتجوُّل في شوارع (برلين) و(كولين) و(مانيز) ثم زيارة (آخن) الموجودة على الحدود الألمانية البلجيكية لترى مدفن أول القياصرة الألمان. . (آخن) التي

أصبحت الآن أهم المدن الصناعية الكبرى هناك . . . كان سيأخذها معه لزيارة كل الولايات والعواصم والمدن هناك، فترى الكنائس الصغيرة المنتشرة على الطرق السريعة مثل كنيسة (كابلا) والكنائس الكبيرة أو الكاتدرالا مثل (كيرشا) والكنائس الأكبر منها مثل (دوم) وأجمل الكنائس هناك في (برشلونه) والتي بناها (جاودي) أحسن مهندس معماري في العالم . .

تتمتم : آه لو لم تقف الأقدار هكذا في طريق سفري إليها . . كنت أريد رؤية عارضة الأزياء العالمية (كلاوديا) وزميلتها (موميكا) ومدافن العائلات الألمانية الكبرى (مولر) و(بينز) و(فرانك) و(ميشائيل) و(راين هولد) و(ماركس) و(كارل) . . . لقد وعدني بالسير على ميناء (همبورج)، والسير على بلاط مطار (برلين) وفي طرقات مطار (فرانكفورت) أكبر المطارات الألمانية . . وأن نتناول الإفطار في المطعم التركي، والغداء في المطعم اليوناني، والعشاء في المطعم اللبناني، تلك المطاعم المنتشرة هناك بشكل كبير، أما المطعم المصري بفرانكفورت فهذا في حد ذاته موضوع آخر . . .

آه . . كنت أتمنى الاقتراب من المرأة الألمانية ذات الشخصية القوية، تلك التي وقفت بجانب شباب بلادها المهزومين في الحرب، أو الذين ذاقوا مرارة السجون، وبكل شجاعتها وتحملها زرعتْ وحصدتْ وحملتْ الأنقاض، وباعت واشترت من أجل تربية الأبناء. فعرفت معنى القوة والشجاعة وقوة الشخصية . . .

ولكنه لن يذهب إلى ألمانيا مرة أخرى، سيعود مع أخته (برجيتا) التي ستعيش معنا ولن تتحقق أحلامي في رؤية بلاد هتلر، (هتلر) ذلك النمساوي الأصل المعوَّق نفسيًا والملقب بـ (مجرم حرب). كنت أحب رؤية مدفن هذا الرجل الذي حاصر بولندا ودخلها واحتلها في يوم واحد، كما احتل النمسا بالكلام، بمجرد الكلام. وأسقط القنابل على هولندا وأخذها في يومين فقط، هذا الرجل الذي استطاع إقامة حصار جوّي شديد جداً على إنجلترا . . . إنجلترا كلها . .

كانت (رشا) تتذكر وُعودَ (كول) لها بزيارة وطنه، فيما جاءها خالها (محمد) محاولاً انتهاز فرصة فراغها ليفتح حواراً معها لإثنائها عن موقفها، ونسيان هذا الحب الذي سيجلب المشكلات لها وللعائلة كلها، حيث كلَّفتْه أخته بهذه المهمة التي استشعر مدى

صعوبتها منذ الجملة الأولى في الحوار، لكنه استمر في محاولاته حتى أعلن فشله في النهاية..

لليوم الخامس على التوالي.. وفي مساء يقترب من وقت الغروب الهادئ. والسعال يكاد يشرخ صدرها ويمزق حنجرتها، وليس هناك كابح لجماحه.. شحوب مرعب يغطي وجهها... أربعون عامًا لم تتنبَّه (مَيَّ الشوربجي) إلى معالم جسدها. وعندما اكتشفت خُلجانه ووديانه وأنهاره وسهوله وجباله وتعرَّفت على تعرُّجات أحيائه المختلفة الثقافات وقتئذ فقط هدَّدها المرض.. عادت إليها الذكريات المؤلمة غير المرغوب فيها تفرض نفسها: (الانتهاكات الجسدية، المَعادي، العتبة، الاغتصاب المشروع، الختان، الزواج سرًا، المحْرَمَة، الزواج العُرفي، الضرب المُبرح..... إلخ).

كانت مذعورة هذه الليلة بشكل كبير أرهق ذهنها وتفكيرها.. وأرهق جسدها، تأكدتْ من أن زوجها لا يزال نائمًا لا تدري لماذا تفعل ذلك.. قلبها يحدثها بأن شيئًا خطيرًا سيحدث الليلة.. طلبتْ (فريدة) عبر الهاتف لكي تحضر إليها من الشاليه المجاور لهم... كان صوتها الضعيف المريض ينبئ عن شدة

مرضها. وعندما وضعت السماعة أفزعها جرس طويل (ترانك) آت من القاهرة بالطبع.. لم تتساءل عن مصدر المكالمة، رفعتْ السماعة بسرعة. كان صوته المرهق المريض أيضًا يخبرها بأنه مصاب بحمَّى شديدة، وبطريقته المعهودة علّل ذلك بأنها ضريبة الإخلاص، فمنذ عرفها وحتى اليوم لمْ ينزل نهر أُنثى على الإطلاق، رغم البُخل الشديد الذي تمارسه (مَيّ) عليه، ورغم الحصار الكبير الذي تحاصر به روما برغبتها، ولهذا فهو مريض، لكنه يأمل في رؤيتها مرة واحدة.. وعدها بأن يكون مؤدبًا وملتزمًا بوعده.. دق قلبها بسرعة ألف دقة في الدقيقة الواحدة.. لم تفكر كثيراً. وفي اندفاع المتهورين قالت له: سأحضر حالاً وآتيك بطبيب.. المرض يجعل الناس أكثر شفافية...!!

جرس الباب أفزعها أيضًا.. أصبحت تُفزع بسرعة شديدة لأتفه الأسباب ومن أقل الأصوات. همَّتْ لتفتح الباب فسبقها ابنها وفتحه.. دخلت (فريدة) متلهِّفة عليها، فوجدتْ مَنْ كانت منذ دقائق بين الحياة والموت تتحرك بحيوية لتقف أمام الدولاب، وتتخير فستانًا جميلاً وتستعد للخروج قائلة: إلى القاهرة مباشرةً..

- مباشرةً..؟

– نعم . . وستذهبين معي يا فريدة لزيارته . . إنه مريض . .

(فريدة) أيضًا لم تتردَّد في قبول العرض الذي كان مغلَّفًا بإجابة إجبارية . .

بسيارتها الجامحة ، تجتاز الطريق الصحراوي بسرعة أفراد العصابات الدولية في شيكاغو . القلق يراودها . صورته راقداً في سرير المرض محمومًا هي الشيء الوحيد الذي تراه أمام عينيها . تصرخ (فريدة) في وجهها أكثر من مرة لأنها أوشكتْ على التصادم بسيارات قادمة في مواجهتها . . أو لأنها لا تستطيع السيطرة على الفرامل في الوقت المناسب . . أو لأن يداها تهربان من على عجلة القيادة عندما تروح في إغفاءة سريعة من شدة الوهن وتأثير الكبسولات المسكنة ومخفضات الحرارة التي ابتلعتها منذ ساعتين تقريبًا كما قالت لها . .

أمام العمارة الأنيقة في الحي الراقي أوقفت سيارتها ، وبسرعة البرق كانت أمام (الأسانسير) ، لم تتحمل أعصابها انتظار المصعد الذي كان مشغولاً فصعدتْ على السلم ، وخلفها (فريدة) تهدّئ من روعها ، وتخفف عنها وطأة القلق والتوتر .

تذكَّرتْ أنها لم تسأله عن رقم الشقة، العمارة عالية، ماذا تفعل . . ؟ ستضغط على الجرس الذي يدلُّها قلبُها عليه، فجأة وجدتْ اسمه على باب الشقة التي توقفتْ أمامها فجأة، لا لشيء إلا لأنها تعبتْ من الصعود السريع على قدميْها . . إضافةً إلى الإعياء الذي شعرتْ به متضاعفًا .

فتح لهما الباب . انبهرتْ (فريدة) من طوله الفارع ومن روعة شكله وأناقته . صاح مهللاً وهو يكاد أن يسقط على الأرض من شدة الإعياء :

- أهلاً روما العظيمة . .

أسندتهما (فريدة) إلى بعضهما . وساعدته (مَيّ) ـ رغم ترنُّحها هي الأخرى ـ في الوصول إلى السرير . وراحت (فريدة) لإحضار الطبيب، لم تغب كثيرًا، نصف ساعة تقريبًا . وبعد مغادرته راحت (فريدة) تبحث عن المطبخ لتصنع لهما مشروبًا دافئًا، وليكن قهوة لكي تحفظ اتزان (مَيّ) خشية أن تنام أثناء العودة وهي تقود السيارة . .

عندما عادت إليهما وصينية القهوة في يدها كانت (مَيّ) تقول (لأ) بصوت خفيض . وعلى استحياء تعيد وضع (الروج) على

شفتيْها فيما كان يرتِّب ملابسه على جسده. أغفلتْ ذلك ونبَّهتْها إلى أنهما ستشربان القهوة وتعودان فوراً إلى الإسكندرية.. فقد أصبح بخير والحمد لله.

في المصعد ـ استعداداً للنزول ـ كانت (مَيّ) ترى أرقام اللوحة الصغيرة في حجمها الطبيعي ثم تكبر وتكبر هكذا (١، ٢، ٣٠، ٤٠٠، ٥٠٠، ٦٠٠٠، ٧٠٠٠٠)..!!

ضحكتْ ضحكات هستيرية ذات صدىً مدو. وعندما نزلتا من العمارة كان الشارع يبدو وكأنه في حفلٍ ماً. هرج ومرج وصياح أحدث نوعًا من التشويش على أفكارها. حاولت تنظيم دماغها. قادت سيارتها بفتور شديد لم يكن مطروحًا هذه الليلة المليئة بالمفاجآت...

كانت تعلم أن نضالها معه أو ضده سيكون شاقًا وطويلاً.. ومع ذلك، أحبت المغامرة عبر صوته ورقته.. كانت تعلم أنها بين يدي ذئب. ومع ذلك أحبتْ اللحظة وذابت بين أصابعه التي أمسك بها قلمًا من الفلوماستر الأزرق العريض ليكتب اسمه على ذراعها الأيمن بالطول عدة مرات، ثم على ذراعها الأيسر بالعرض عدة مرات، مثلما يفعل المراهقون تمامًا.. وهل يفعل المراهقون

ذلك . . ؟؟؟ . تمنَّت للحظة لو كان كتب اسمه على كل جزء فيها طولاً وعرضًا . . هل تعمَّدتْ (فريدة) أن تذهب لإحضار الطبيب . . . ؟

كانت (مَيّ) تقود السيارة كمن تمَّ تخديره الآن بحقنة بنج كبيرة تكفي لعمل عملية جراحية بسيطة، وهي تتذكر ذلك الجرس الذي رنَّ في حجرته منذ دقائق، وعندما رفع السماعة لم يجد أحداً على الخط . . ! ! لا تدري إن كانت هذه هي الحقيقة أم أنه تصرَّف بحكمة وأغلق السَّماعة مدَّعيًا أنها معاكسة، ودون أن تسأله أو تطلب منه مبرِّرًا . . لكنها ردَّتْ عليه مستنكرة ذلك. ولَّما أكَّدَ لها أنها بالفعل (معاكسة) سألته بشكل صريح: ترى ما هو إحساس الرجل في هذه الحالة . . ؟

لم يتوقفْ كثيراً عند السؤال . . فلديه دائمًا إجابات جاهزة لأسئلتها، لديه فائض من الإجابات الساخنة المتشابكة والمتصلة . . ومع كل إجابة سؤال يقدم تمهيداً مؤديًا للغرض . . غرض في نفس يعقوب:

- لقد اعتدتُ، واسترحتُ، وأحببتُ هذا النمط من العلاقات الذي لا يسير في اتجاه واحدٍ طوال الوقت . . بمعنى ألا

أظل على الدوام أنا الصياد الذي يرمي الشبكة فتدخل السمكة فيها أو لا تدخل . . فمن المؤكد أنني يأتي عليَّ حين من الوقت أحب أن أُغازل أُنثى جميلة مثلك، ويأسرني دلالها عليَّ، مع أنني متأكد من رغبتها فيَ . . ثم أتركها بعض الشيء، وعليها أن تعرف أنني ـ أحيانًا ـ أكون قصير النَّفَس جدًا . . . فبالرغم من أنني أكون أسيرًا لحبها ودلالها هذا، فإن التطويل والاستمرار فيه يشعرني بالملل والزَّهق ولهذا أُحذرك . . ومن المؤكد أيضًا أنني أحب الوجه الآخر من العُملة . . أقصد الوجه الآخر للعلاقة، والذي أشعر فيه بأنني مطلوب عندها، عندما ترمي في وجهي أحيانًا حفنة من الورد، وأنا أرى أن هذا التصرف شيء طبيعي . وإذا كنتُ قد تخطيتُ هذا الحاجز منذ فترة طويلة أيام كنتُ أعيش في الريف بين تقاليد وأطر مختلفة فما بالك وأنا في مصْر . . في القاااااهرة . ليس معنى هذا أنني أنساق وراء كل (معاكَسَة) لي، أوْ وراء كل حفنة من الورد تُلقَى في وجهي وإلا (كان زَمانَي حالة عبيطة أوي) . .

– سنرى . .

– ذكَّرتيني بأكثر أُنثى قالت لي "سنرى" . . !! كانت مُدرِّسة باليه، جريئة بدون ابتذال، وكانت تحب ارتداء اللون الأسود كثيراً جداً، لأنها بيضاء . . مما أثار خيالي جداً . . .

عجلة القيادة لا تزال تتماهَى بين يديها . بطيئةٌ حركة السيارة . . تتيقظ على صوت (فريدة) التي تذكرها من وقت لآخر بأن تسرع بعض الشيء لأن الوقت قد تأخر بهما، ولابد أن تكونا في الإسكندرية في تمام الثانية عشرة مساءً على الأكثر . . فهذا أقصى ما يمكن أن تصل فيه من وقت لزوجها وأبنائها . .

كما أن (أحمد) زوج (فريدة) بالتأكيد بدأ حالةً من القلق عليها . . حاولتْ (مَيّ) أن تسرع . كان تأثير المسكنات قد زال وبدأ السُّعال اللعين يهاجمها بصورة أشرس من ذي قبل . . كما ارتفعت حرارتها مرة أخرى . . لابد أنها أصابتها عدوى أخرى فوق مرضها أصلاً . . !!

وعند وصولها إلى الشاليه كان (محمود) غاضباً وقلقًا عليها . . لم يعرف ماذا يقول (لأحمد) الذي سأل عن زوجته (فريدة) خلال سبع ساعات ونصف – سبعين مرة . . . قالت (مَيّ) أنها كانت عند الطبيب . وظل (محمود) متشائمًا ومضطربًا ولم يستطع

إغماض عيونه طيلة هذه الليلة. القلق أفقده استقراره، انقباضةٌ ما كجبلٍ تقبض على قلبه، إحساس متزايد بالغضب لا يدري مصدره، حدَّثها بلهجةٍ جافَّة.. تجاهلت ذلك كله ونامتْ.

في الصباح تعرَّضتْ ابنتها (رشا) لمحاولة اختطاف أنقذها منها خطيبها (إبراهيم) الذي حضر من ألمانيا مباشرةً إلى الإسكندرية. والذي لم تدر (مَيّ) بالأمس أنه اتصل بهم ليزف إليهم خبر وصوله إلى أحد فنادق الإسكندرية.. وفي الصباح توجَّه إلى الشاليه الذي تقيم فيه (رشا) وأسرتها. وقبل أن يدق جرس الباب سمع صوت أغنية لطيفة حانية النغمات رقيقة الكلمات يشترك مع (رشا) في حبها، فتوقع أن تكون (رشا) هي التي قامتْ بتشغيلها استعداداً لاستقباله. تنبَّه إلى مصدر الصوت فوجده يصدر من عند الشاطئ.. الكاسيت الخاص (برشا) موجود بالفعل تحت الشمسية مع ملابسها.. دقق النظر فوجد (رشا) وحدها تتلقفها الأمواج، وتهدهدها نسائم هادئة، كان الصباح قد أرسلها إليها مبكراً جداً حيث لا أحد على الشاطئ ولا في المياه سواها. فاجأها ثلاثة شُبان محاولين اختطافها متجهين بها نحو سيارة سوداء شبح.. وفيما هي تصرخ كان (إبراهيم) قد أسرع جريًا إليها وقد جُن جنونه،

واستطاع بمفرده أن يخلصها من بين أيديهم . . أشبعهم ضرباً ولكماً وركلاً ففروا هاربين، وأخته برجيتا في ذهـول تـام، تضـع أيـديها على فمها وعيونها مفتوحة باتساع البحر . .

ظلتْ (رشا) ممتنعة عن تناول الطعام والشراب لمدة ثلاثة أيام. ولم يتمكن أبوها أو أمها من إقناعها بتناول أي شيء سوى المياه، حتى شحب لونها، وبرزت عظام وجهها وطالت أصابع يديها. ولمْ يكن هناك من حلٍ سوى زفافها على (إبراهيم) ، فقد رجُحتْ كفته، وزاد احترام العائلة له ولأخته، و(مَيّ) لا تـزال غارقـة في ذكرياتهـا المؤلمـة : (العتبـة، المعـادي، الخَرابـة، الختـان، الـزواج العُرفي، الاغتصاب المشروع، وأخيراً محاولة اختطاف ابنتهـا . . .) تبكي وتردِّد :

- الـذئاب، الكـلاب، الـذئاب، البِيـادَاتْ. . أولاد الصَّرمة . . .

في القاهرة وفي نفس ليلة زفاف (رشا) ووسط تهنئـة المـدعوين وصخب الأغاني، كان من الصعب على (مَيّ) أن تحدد الوهم مـن الحقيقة. رأته أمامها يشدها برفق من ذراعها، ويشمر كُم فسـتانها عن ذراعيْها ليجد اسمه لا يزال مكتوباً بعد مرور شهرٍ كامل علـى

كتابته. كان قد حُفر على ذراعيها تمامًا كالوشم.. نظر في عينيْها فجذبته القطة السِّيامي البيضاء من بنطلونه جذبة مملوءة بالغضب. لم يأبه بها. فجذبتهُ مرةً أخرى بعنف.. فترك القاعة ورحل مثل طيف وكأنه لم يكن.. وفي هدوء أجمل من هدوء القطط خرجتْ (مَيّ) وراءه تبحث عنه فكان قد تلاشى تمامًا... كانت (مَيّ) تدوخ من الأماكن المرتفعة.. تتذكر شرفتها والنجوم وجبل المقطم، والراهب العجوز، ويوم عيد ميلاد (فريدة) ومحاولة إسقاط نفسها من الشرفة، لكنها الآن في حديقة الفندق الكبير الذي يتم فيه عُرس ابنتها، فلماذا تشعر بنفس الدوار، وترى نفس المَشاهد، وتسمع نفس الأصوات، ولماذا تشعر بسقوطها من أعلى وأجزاء كثيرة من جسدها تتناثر أمامها، ولسانها الأعمَى الذي طالما قال (لأ) يتلوَّى أمامها متشفيًا فيها ردّدتْ في حسرة وندم: يااااه وقبل أن تكملها عاد إليها من الخلف. أحستْ بأنفاسه، شدها من ذراعها بقوة.. لم تدر إلا وهي في حجرته متكسرةً تمامًا وقطتها السِّيامي البيضاء تجري وتجري... تركته وجرت خلفها، فيما لم تستطع اللحاق بها.. ركبت سيارتها وطارت تبحث عن قطتها التي لم تدر كيف دهستها فجأة تحت عجلات سيارتها. نزلت من السيارة مذهولة.. حملتها بين ذراعيْها وضاعتْ في

عيونها الزرقاء، ودماؤها تسيل وتسيل على أشيك فستان ارتدته (مَيّ) في حياتها . . . . .

(تمت) والحمد لله

الأديبة والشاعرة شريفة السيد

القاهرة ٥ يوليو ٢٠٠٦

obeikandl.com

S

- الإهداء ص٥
- مكالمة لم تتم ص٦
- المَحْرَمَة ص١٨
- الدّور على مَيّ ص٢٤
- حُجرَةُ المُوسيقَى ص٣٦
- شُرودٌ مُرْبِك ص٤٣
- خَوْفٌ بِحَجْمِ الْحَياة ص٥٠
- المَلائكَةُ يَعشُونَ بَيْنَنا ص٦٣
- الرَّقص علَى السُّلَّم ص٧٥
- في صَحْن المَسْجِد ص٨٧
- الأماكِنُ الَّتِي ص٩٥

obeikandl.com

- مُؤقَتـــاً ص١٠٤
- مُراهَقـة ص١١٤
- مَانيكـانْ ص١٢٤
- مُراوَغَـة ص١٣٢
- مفاجأة جديدة ص١٤١
- رومـا العظيمـة ص١٥٧
- ذكَر النَّحل ص١٧٧
- لِقـاءٌ أخِيْـر ص١٩٠
- المحتويات ص٢٠٥

زوروا موقعنا

/http://www.elmohrereladbe.com

وصفحتنا على الفيسبوك

/https://www.facebook.com/elmohrereladbe

openkanal.com

obeikandl.com